

د. جورج حبيب باوي

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الأولى

Coptology

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الأولى

دكتور

جورج حبيب باوي

٢٠٠٩

سبعون عاماً ونصف قرن مع كتاب تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس الرسولي

عودٌ على بدء:

عبرتُ السبعين يوم ٢٧ نوفمبر الماضي ٢٠٠٨، وذكريات السنوات "السبعين" تحمل بين ثناياها تفاصيل رحلة طويلة رتَّب الله نفسه مراحلها، كما رتَّب أيضاً أن يتواجد فيها العديد من الأشخاص الذين كان لهم الفضل الأول في توجيه مراحل مسيرة العمر.

كنا نسكن في ٢١ حارة عبد الجواد – مصر القديمة، وفي نهاية الحارة كان يقبع أول مسجد بُني في مصر، وهو مسجد عمرو بن العاص. وكان كل الساكنين في هذه العمارة من المسيحيين. وقد رتَّب الله أن يكون الأستاذ جورج قدسي هو أحد السكان معنا، ولكنه قرر الانتقال إلى حلوان، وكان مشتركاً في مجلة صهيون التي كان يصدرها الأسقف الأنبا إيسيذوروس، وعندما ترك مصر القديمة طلب مني أن أجمع له كل البريد الخاص به واحتفظ به، وقال إنه يسمح لي بقراءة مجلة صهيون. وكان أول ما قرأت فيها هو تاريخ الكنيسة الشرقية للمستشرق الإنجليزي ستانلي، وقصة حياة القديس أثناسيوس، وما احتوته من تفاصيل النفي والتشريد والمحاكمة أمام مجامع الأريوسيين. ولم أكن أعرف إلاَّ القليل جداً عن تاريخ الكنيسة، ولكن الإعجاب بالقديس أثناسيوس ملأ قلبي، فحاولت أن أجد كتاباً واحداً لهذا القائد العظيم، ولكني لم أعثر على شيء.

رتَّب الله أيضاً أن تكون هناك علاقة صداقة قوية مع زميل في مدرسة الفسطاط الثانوية هو الأستاذ كيرلس ثابت سلامة، ولما عرف برغبتي الحارة في الإطلاع على تاريخ الكنيسة، أعطاني كتاباً يملكه عمه هو كتاب "تاريخ الكنيسة القبطية" للقس منسى يوحنا، فقرأته في ثلاثة أيام. وبعدها قدم لي الأستاذ حمصي ثابت سلامة كتاب الخريدة النفيسة للأسقف ايسيذوروس، فقرأته في يومين. كنت أحب التاريخ، ولازلت أعتقد أنه أحد مفاتيح الثقافة في أي بلد. ومن مكتبة أبي المتواضعة قرأت "فجر الضمير" لجيمس هنري برستيد، ومقالات المجلة الجديدة لسلامة موسى، وكان أبي من عشاق المجلة، وسلسلة الأدب العالمي.

لكن أثناسيوس ظل قابعاً في أعماق قلبي.

رتَّب الله أن ألتقي بالدكتور شفيق أسعد إبراهيم في كنيسة مار مينا بمصر القديمة، وكان من أخلص أبناء القمص مينا المتوحد. وكان قد درس في انجلترا وعاد ومعه مجموعة من الكتب، هي سلسلة آباء الكنيسة قبل وبعد نيقية.

وكان ضمن هذه المجموعة طبعة خاصة لكتاب تجسد الكلمة صدرت في لندن ١٩٢٤م، وقدَّم لي معها الترجمة العربية للأب الفاضل القمص مرقس داود، والتي صدرت عن جمعية المعارف المسيحية التابعة للكنيسة الأسقفية في مصر في عدة طبعات.

قرأت الكتاب باللغتين الإنجليزية والعربية، وساعدتني الترجمة العربية، وأعترف بأنني لم أفهم كل ما فيه، ولكن ثلاثة ملامح أساسية رسخت في عقلي وقلبي:

أولاً: إن الخلق من العدم هو عمل النعمة الإلهية.

ثانياً: إن الصورة الإلهية التي أعطيت للإنسان هي عطية مضافة، أو ثانية لنعمة الخلق من العدم.

ثالثاً: إن الخلق وتدبير الخلاص هو استعلان صلاح الله، ولذلك جاء التجسد

تعبيراً عن محبة الله الخاصة للبشر.

عندما أصبحت طالباً في القسم النهاري بالكلية الإكليريكية كانت أول زيارة لدير السريان العامر في يناير ١٩٥٩م، وكانت عادة رهبان دير السريان إصدار ميمر في عيدي الميلاد والقيامة. وجاء ميمر عيد الميلاد هذه السنة عن تجسد الكلمة، وكان كاتب هذا الميمر هو الراهب انطونيوس السرياني (الأنبا شنودة الثالث بعد ذلك). ولكن عندما قرأ الميمر في المضيفة في صباح العيد، كان العرض مختلفاً تماماً عن كتاب تجسد الكلمة لأثناسيوس.

فقد عرض الراهب أنطونيوس السرياني الموضوع على هذا النحو:

- لقد أخطأ الإنسان ضد الله خطية غير محدودة.
- وبالتالي يكون العقاب غير محدود.
- لذلك جاء الابن ودفع الترضية.

لا شك أن مصدر هذه الأفكار هو محاضرات اللاهوت النظري للأب الكاثوليكي أوجين دي بليسي، والتي نشرها أستاذنا حبيب جرجس في مجلة الكرمة. كان واضحاً أن الراهب أنطونيوس لم يكن قد قرأ كتاب تجسد الكلمة؛ لأنه – كما قال في حديثه – يشك في صحة ما كتبه أثناسيوس؛ لأنه وصلنا عن طريق الكاثوليك والبروتستانت.

التاريخ هو المفتاح المفقود:

الاتهام الموجه لكتابات الآباء بالتزوير، لا يعدو أن يكون محض خيال. وهو اتهام غير تاريخي وغير موثق، وهو لا ينفصل عن فخ الرواية الذي وقعت فيه الثقافة في العالم العربي بشكل عام.

صحيح أن التاريخ قصة، ولكن الفرق بين التاريخ والقصة كبير:

١- فالتاريخ شهادة موثقة، هو وثائق من شهود عيان أو من معاصرين لأحداث كتبوا عنها، ولذلك يتجاوز التاريخ "السرد" إلى تقديم الوثائق.

٢- والتاريخ ليس فقط مدونات من جهة واحدة، بل هو مدونات لكل من شاهد أو سمع أو قرأ، هو جمع كل القرائن والوثائق، حتى تلك التي يسجلها الأعداء.

أمَّا القصة فهي سرد بلا وثائق؛ لأن القصة مؤلَّفة في الأساس.

كانت نقطة التحول لديَّ في إدراك ضرورة العودة إلى المراجع هي زيارة المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي إلى مصر بدعوة من جريدة الأهرام، وكان أستاذنا الفاضل سليمان نسيم هو الذي اصطحبني إلى محاضرة له ألقاها في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، يؤسفني حقاً أنني لا أتذكر تاريخها، ولكني أتذكر أنني كنت وقتها معيداً في القسم النهاري. وبعد المحاضرة قال سليمان نسيم إننا في حاجة إلى "توثيق التاريخ". إن ما نشر عن التاريخ القبطي هو مجرد "سرد"، و"فن كتابة التاريخ من الوثائق" ليس مثل "فن السرد".

لقد أتقن الشرق "فن السرد".

وهكذا جاءت الكتب الكبرى لإيريس حبيب المصري – القس منسى يوحنا ومذكرات أستاذنا الفاضل الأب أنطونيوس البراموسي أستاذ التاريخ سرداً يحتاج إلى مراجعته والتدقيق فيه، وهكذا اعتمدنا على الرواية وعلى مكانة "الراوي"، ولكننا لم نبحث في مصادر الرواية، وفي مدى معرفة "الراوي" بالتاريخ من مصادره، وما بذله من جهد في تحقيق ما جاء فيها.

فهل يمكن الطعن في صحة انتساب كتاب تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس؟

في تلك الفترة، أي الستينات لم يكن لديَّ سوى جواب واحد، وهو أن الاتهام غير المستند إلى دليل هو باطل لا يستحق البحث، وإن كان أحد الأدلة التي ساقها الراهب أنطونيوس السرياني على تزوير كتاب تجسد الكلمة هو أن أثناسيوس

يكتب عن طبيعتين في المسيح، وهذا تعليم غير أرثوذكسي. في حين أنك إذا بحثت عن كلمة "طبيعة" في كتاب تجسد الكلمة لا تجدها بالمرة، حتى ولا في الترجمة العربية.

أثناسيوس يكتب عن الناسوت وعن لاهوت الكلمة، ولكنه لم يستخدم كلمة طبيعة بالمرة في كتاب تجسد الكلمة، وتعد نفس الملاحظة صحيحة أيضاً بالنسبة للمقالات الأربعة ضد الأريوسيين.

وبالتالي فالاتهام بالتزوير هو مجرد اتهام باطل.

تاريخ العقائد المسيحية هو المفتاح الضائع

تعرفت بالأستاذ حبيب سكاكيني، وفي ذلك الوقت كانت مجلة "الصخرة الأرثوذكسية"، وأبحاث الأستاذ فرنسيس العتر تعد من المصادر الرئيسية في دراسة الأساس التاريخي للأرثوذكسية. وكنت لا أزال طالباً في القسم النهاري، وقد تزامن هذا مع يوم روحي بعد رسامة البابا كيرلس السادس في ذكرى الأستاذ حبيب جرجس. وألقى د. نصحي عبد الشهيد محاضرة عن "الكنيسة الأرثوذكسية" كان لها وقع خاص، فقد جاء الكلام جديداً عميقاً. وعندما سألته عن مصدر المحاضرة تطوع وأعطاني كتاب "الكنيسة الأرثوذكسية" باللغة الإنجليزية للأب بولجاكوف، ثم مجلد أعداد سنة كاملة من مجلة النور. وبدأ السؤال الأصلي يظهر بوضوح.

كانت الإرسالية الأمريكية قد نشرت ترجمة عربية لكتاب موسهيم "تاريخ الكنيسة". وجاء هجوم حاد عنيف في كتاب "ريحانة النفوس في أصل العقائد والطقوس" للقس بنيامين شنيدر. كان هجوم الإرساليات حاداً، ولكنه كان يقابَلُ بصمت غريب، هو بكل تأكيد صمت من لم يتخصص في دراسة تاريخ العقائد، وهو فرع من أفرع الدراسة، لم أكن قد سمعت عنه حتى ذهبت إلى بعثة جامعة كامبريدج.

لماذا نتقدم في بطء شديد جداً؟

عندما أنظر إلى قرابة نصف قرن من الزمان قبل وبعد رسامة البابا كيرلس حتى عصر الأنبا شنودة أجد أن التقدم نحو معرفة تراثنا يسير في بطء شديد جداً، ويمكن أن نضع تحت بصر القارئ الحقائق الآتية.

أولاً: مقاومة عنيفة من بعض الأساقفة – وعلى رأس هؤلاء الأنبا شنودة نفسه – لكل ما يُترجم ويُنشر. وهذه شهادة للتاريخ، فعندما ترجمت كتاب شرح تجسد الابن الوحيد للقديس كيرلس السكندري إلى العربية، ظلت مخطوطة الترجمة في درج مكتب الأنبا شنودة سنة كاملة لا يريد أن ينشرها. وكان لأستاذنا الفاضل وليم سليمان الفضل الأول في نشر الكتاب، بعد أن تطوع أحد الآباء الكهنة بالتمويل (لا داعي لذكر اسمه حتى لا يبطش به أحد). ونفس القصة سمعتها من الأب مرقس داود عن مخطوطة عظات القديس كيرلس السكندري على إنجيل لوقا التي فُقدت في أضابير البطريركية، ولم تنشر إلاَّ بعد مرور نصف قرن على الترجمة الأولى التي ضاعت كما يقول الأنبا شنودة. وقد قام بنشرها مركز دراسات الآباء بالقاهرة في ترجمة للدكتور نصحي عبد الشهيد.

ثانياً: عندما ظهر كتاب الأستاذ فتحي عثمان "المسيح في الأناجيل الأربعة"، ومن قبله كتاب الأستاذ أبو زهرة "محاضرات في النصرانية" لم يكتب أحد رداً. بل لم يكتب أحد رداً على كتاب الدكتور نظمي لوقا "محمد الرسول والرسالة" سوى القمص مرقس سرجيوس، وكان مشلوحاً بقرار من الأنبا يوساب.

وطبعاً لا يمكن أن تجد لذلك سبباً إلاَّ انعدام التخصص، وتلك حقيقة. ولكن خلف ذلك تكمن الحقيقة الأكبر وهي انحطاط مستوى مناهج التعليم.

ثالثاً: عندما عدت للتدريس في القسم النهاري بعد عودتي من البعثة ١٩٧٠ حاولت تدريس مادة جديدة وهي قراءة نصوص التاريخ. ولعل طلبة السنة الثالثة

يتذكرون ذلك، ومن هؤلاء في ذلك الوقت، ميخائيل ادوارد – ماكس ميشيل – ممدوح جبانية – كمال كامل، وهؤلاء الآن يخدمون في الكنيسة ما عدا ماكس ميشيل الذي له قصة فريدة، وهي أنه أراد أن يكتب بحثاً عن "الخطية الأصلية" ليقدمه لأستاذنا الأنبا غريغوريوس وساعدته في البحث، وكانت أهم نقاط البحث أن الاسم "الخطية الأصلية"، هو اسم لاتيني لا وجود له في المصادر اليونانية والقبطية وأن الاسم الآبائي هو خطية آدم – الخطية الأولى، أو المعصية القديمة. وأن اسم الخطية الأصلية يعود إلى القديس أوغسطينوس.

ورسب الطالب ماكس ميشيل وبقى لسنة أخرى بسبب هذا البحث، فقد جاء هذا البحث ضد ما ورد في مذكرة البيلاجية لأستاذنا الأنبا غريغوريوس. وأحسست بالندم، ولكن بدا واضحاً أن البحث التاريخي مرفوض تماماً؛ لأنه يزعزع مكانة "الراوي"، وكانت عقوبتي هي قرار من الأنبا غريغوريوس بمنعي من التدريس، والسماح لي بتدريس اللغة الإنجليزية فقط. وهو قرار مقنَّع بأنني لست من أهل الثقة وإيماني مشكوك فيه، وكان القرار بموافقة وبركة الأنبا شنودة الذي كان قد جلس على عرش مار مرقس.

بعض ملامح الموت الفكري:

أذكر الآن طبيباً مصرياً كان قد كتب قصة بعنوان "التقدم للخلف". كان للرقابة وقفة مع هذه القصة، ولكن الرئيس عبد الناصر سمح بنشرها. وبعدها توقف الطبيب عن الكتابة. جاء هذا الطبيب مع أحد كبار رجال الأمن لزيارتي، وكنت لا أزال أحد المقربين من الأنبا شنودة. وجاء رجل الأمن ومعه ملف مجلة الكرازة، وكانت تصدر أسبوعياً. وقرأ خبراً لاحظت أنه أُحيط بمداد أحمر "القداسات القبطية تلف الكرة الأرضية" وسألني ما معنى هذا؟ طبعاً مَن يقرأ الكرازة كقبطي ليس كمن

يقرأها في الأمن المصري. وحاولت إقناع اللواء بأن هذا مجرد دعاية لقيادة جديدة تحاول إبراز الإنجازات على طريقة وأسلوب الرئيس جمال عبد الناصر. ولكن الرجل أجاب بحدة: عبد الناصر كان بيتكلم مع شعب مصر، ولم يكن زعيماً لأقلية دينية تحاول عن جهل بعث زعامة دينية قبطية، الأمر الذي يترتب عليه خلق زعامة إسلامية مضادة.

وكان مجمل اللقاء هو محاولة إقناع البطريرك بـــ:

١- بإلغاء اجتماع الجمعة الذي خلق اجتماعات موازية في المساجد المجاورة.

٢- بمراجعة ما يُنشر من أخبار الكنيسة ولا داعي كما قال الرجل أن تخلع الكنيسة ملابسها وتقف عارية أمام مجتمع يلعب فيه الشعور الديني دوراً كبيراً.

وانصرف الرجلان، ولكنني فزت فقط بنسخة من "التقدم إلى الخلف"، وبدأ اهتمامي بما كتبه الأدباء نجيب محفوظ – فتحي غانم – صنع الله إبراهيم .... الخ. ربما كانت العودة إلى القصة المصرية هي بعث حركة التنوير.

ولكن كما يقول المثل "تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن"، فقد استقال وكيل الإكليريكية من التدريس، ونكاية في الأنبا غريغوريوس أعادني الأنبا شنودة إلى التدريس، بل أعطاني مسئولية وكالة القسم المسائي.

ولكني أدركت في هذه الفترة أننا دخلنا في مراحل الموت الفكري البطيء، وهذه هي ملامح هذا الموت.

أولاً: الصراع على القيادة:

يبدأ الموت البيولوجي عندما تتراجع أجهزة الجسم عن العمل حتى تتوقف في النهاية. وعندما يدخل جهاز من هذه الأجهزة في صراع مع جهاز آخر، فإن موت الجسم يصبح حتمياً. وعندما تتصارع قوى الأقلية – كما يقول – فرانز فانون في

"بؤساء الأرض"، فإن الصراعات العقائدية - بشكل خاص – تتكفل بأن يتسلل الشلل والموت البطيء إلى الكيان. كان هذا هو مصير الثورة البلشفية، وبعد أكثر من نصف قرن جاء ميخائيل جورباتشوف، وحاول التقدم، لكن صراعات أجهزة الحكم والقيادات لا يمكن أن تحسم في جيل واحد، بل تمتد لكي تقتل كل القوى الحيوية. وما حدث عندنا لا يخرج عن هذا التنظير، فقد سطع نجم الأب متى المسكين في هدوء. وبدأ يشغل الحياة الفكرية. وهكذا كان القائد الحقيقي هو الأب متى المسكين، فهو معلم "المثقفين" ورائد التنوير واسترداد التراث، ولكن من ناحية أخرى جاء الهجوم بالشتائم، وقص عبارات ولصقها بشكل يخلق اتهامات يعلم الذي صاغها أنها كاذبة.

ثانياً: غياب الوعي:

بعد رحيل الرئيس جمال عبد الناصر، كتب توفيق الحكيم "عودة الوعي" وكان صرخة لاسترداد الديمقراطية وحرية التعبير، ولكن كما هو ثابت في علم الاجتماع أن الأكثرية تتعافى بسرعة أكثر من سرعة الأقلية؛ لأنها تملك حرية أكثر، مصادر أكثر، ثقة أكبر، ونسبة الخوف والقلق أقل بكثير، لكن الأقلية حريتها أقل، مصادرها أقل، الثقة والأمان رهينة بما تقدمه الأكثرية. ويحكم الخوف والقلق حرية الأقلية.

ما هو المقصود بالوعي الغائب في الكنيسة القبطية؟

هو الوعي بتراجع برنامج التعليم الديني وإعداد المؤهَّلين والمتخصصين. كانت الكنائس الشرقية الأرثوذكسية قد وضعت أحدث برنامج لمدارس الأحد، واشترك فيه سريان — هنود — أرمن — أقباط، وكان أحد هؤلاء هو الأب أنطونيوس أمين. وطبع المنهج لكي يسجنه الأنبا شنودة و لم ير النور.

وتراجعت برامج التعليم، بل وتأخرت مؤسسات التعليم. فقد أغلقت مكتبة

معهد الدراسات القبطية أبوابها طوال ٢٠ سنة، ولم يكن مصير مكتبة الكلية الإكليريكية أحسن حالاً. وشتَّت القيادة الكنسية المبعوثين الذين - مثل غيرهم من علماء مصر - فضَّلوا النجاة بأنفسهم، فلم يعد بعضهم إلى مصر.

وهكذا، رُسِمَ للكهنوت: الأنبا باسيليوس مطراناً للقدس. الأب الياس مرقس لكندا. الأب روفائيل نخلة لكندا.

- وهرب كل من: د. كرم نظير خلة. د. مرقس بولس.

- وعاد ليعيش تحت حزام الفقر بكل ما في هذه الكلمة من معاني مؤلمة: د. موريس تاوضروس. د. رشدي حنا. د. وهيب جورجي.

- منع من الخدمة والتدريس — بلا استثناء - كل المبعوثين إلى اليونان.

وقد انعكس كل هذا على الحياة الفكرية للكنيسة، وذلك لانعدام الأجهزة الحيوية التي تضخ الدم في الكيان فتجدده وتفعمه بالحياة، وسوف نتكلم فقط عن وسيلتين هما: الدوريات والبعثات:

أولاً: الدوريات

ولكن الدوريات لها جهاز واحد، وهو أقلام المتخصصين. ولها أرضية واحدة، هي مؤسسات التعليم، مثل معهد الدراسات القبطية الذي سقط في هوة انعدام المتخصصين في: التاريخ — القانون — الآثار، وظل قسم الفن يعمل بقدرات الفنان إيزاك فانوس. وقسم الموسيقى بالتضحية الهائلة للأستاذ راغب مفتاح.

ثم ما هو مصير معهد الكتاب المقدس؟ الذي بلا مكتبة وبلا أساتذة.

وبعد أن تم إبعاد د. وليم سليمان قلادة، وكذلك د. عوني برسوم عن قسم القانون الكنسي، يتطوع الأنبا شنودة - الذي لم يدرس القانون الكنسي - بالهجوم على المجموع الصفوي لابن العسال، دون أن يقدم البديل.

في غياب الجهاز والأرض، ليس لدينا إلاَّ مجلة الكرازة التي يرأس تحريرها البابا

شنودة!!

ثانياً: البعثات:

إن دور البعثات دائماً ما يكون محدوداً بما توفره المؤسسات من فرص كريمة. وبما يسعى إليه المجتمع نفسه نحو التقدم والحرية. فإذا كانت القيادات الكنسية تبث الرعب في النفوس (من الغرب)، فهل يمكن أن نتصور أن تنشط البعثات في هذا الجو؟ إن السؤال الذي يجب أن نجد إجابة عليه هو: كم مبعوث أرسلته الكلية الإكليريكية للحصول على درجات علمية من الخارج منذ ما يزيد عن ربع قرن مضى؟!!!

بداية السبي

عندما حاولت أن أقول كلمة حق من أجل الأب متى المسكين ومن أجل الأنبا غريغوريوس، وجدت نفسي أحسب الأيام الباقية قبل أن يصدر قرار الإعدام، الذي صدر بالفعل عدة مرات من قبل.

القرار الأول كان ضربةً للكلية الإكليريكية فرع طنطا.

فقد كانت الفترة من ٨٢ – ٨٤ فترة صراع يدور حول البحث الدائب عن الاتهامات، وعندما لم يجد ما كان يبحث عنه، خلق ٣٩ اتهاماً كاذباً أرسلها بيده إلى الأنبا يؤانس، وبخط يده كتب الأنبا شنودة: "هل هذا يرضي ضميركم"؟

ومع ضخامة القائمة لم يتجاسر على محاكمتي، فقد حاول ذلك في ١٩٧٩ بعد أن صدر كتاب عن المرأة، نشره مجلس كنائس الشرق الأوسط وقد تضمن الكتاب الفصل الخاص بتطور "النظرة إلى التطهيرات الجسدية"، والذي قمنا فيما بعد بنشره في مذكرات أقامت الدنيا ولم تقعدها حتى هذه اللحظة. وقد حاول الأنبا شنودة محاكمتي في دير الأنبا بيشوي بحضور الأنبا يوأنس – الأنبا ثيئوفيلوس – الأنبا صرابامون – وأخيراً الأنبا بيشوي الذي كان أكثر من أبدى حماسة في تأييد سيده، في

حركة عكسية لما عمله ربنا يسوع المسيح الذي حررنا من كل قيود الناموس. ويهمنا أن نؤكد أن هذه المحاولة فشلت فشلاً زريعاً؛ لأنه:

١- لم يكن لديه قرار محدد باتهام محدد خاص بالعقيدة.

٢- كان محور الاتهام هو "طمث المرأة" الذي لا يوجد بشأنه أي قانون كنسي في الألف سنة الأولى من تاريخ الكنيسة.

٣- وكان تعليم الآباء بقدسية الجسد بسبب تجسد الكلمة، وتحرر الجسد من الفساد الطبيعي والموت، ثم نوال سر المعمودية والميرون والإفخارستيا وهي أسرار الانضمام إلى المسيح هي دفاعنا الذي قدمناه ومعنا الآباء، وهكذا وجدنا أنفسنا نعود من جديد إلى كتاب "تجسد الكلمة"، حتى يتضح لنا الفارق بين الكيفية التي يفهم بها القديس أثناسيوس تجسد ابن الله، والطريقة التي يفهمه بها الأنبا شنودة ومن لف لفه من الأساقفة.

خليط من الفلكلور والهرطقات القديمة:

إذا ما حاولنا تفكيك فكر بعض القيادات القبطية المعاصرة ورده إلى مصادره الأصلية، فإننا وبكل ما يمكن أن يصل إليه إنسان من "موضوعية"، يمكننا وضعه تحت واحد من أربعة احتمالات تؤيدها مقالات الكرازة "بدع حديثة"، وبعض عظات الأنبا شنودة نفسه:

الاحتمال الأول

هو النظرة الشخصية الضيقة التي ترسَّبت بحكم الولادة والتعليم في بيئة غير مسيحية. فمن المعروف لدينا جميعاً أن طمث المرأة يمنعها من الصلاة حسب مدارس الفقه الإسلامي. هنا يلتقي الإسلام مع التوراة التقاءً كاملاً وتاماً. هكذا يقرأ الأنبا شنودة ومعه عدد من الأساقفة سفري اللاويين والتثنية، أي من خلال ما ترسَّب في

وجداهم من أفكار إسلامية تجد لها صدى في العهد القديم.

والنتيجة التي يمكن أن تترتب على هذه القراءة هي زوال العهد الجديد نفسه، ويصبح كأنه لم يكن.

فبعد أن طُبعت المذكرة الخاصة بتطور النظرة إلى التطهيرات الجسدية، أثار بعض الآباء كهنة الغربية الغبار. وتم اللقاء في مطرانية الغربية، وحدث حوار جاد وأمين بحضور المتنيح الأنبا يوأنس.

وقد انحصر الحوار كله حول نقطتين:

الأولى: هل تلغي إفرازات الجسد سر المعمودية، وهو الموصوف في كل كتب الطقوس الأرثوذكسية بأنه "سمة لا تمحى" و"خاتم لا ينكسر"؟

دُهشت تماماً لما ساد من صمتٍ قطعه الرجل النبيل – الأنبا يوأنس – بتقديم الشاي.

لم يلتفت هؤلاء الآباء بزعامة واحد منهم إلى أنهم يهدمون "سر المعمودية" بالإدعاء بأنه يوجد تطهير بالماء أو تقديس بالاغتسال بالماء. وكأن حميم الميلاد الجديد أي "اغتسال الولادة الثانية من فوق بالماء وبالروح القدس" لم يعد له وجود بالمرة.

النقطة الثانية هي: هل يؤمن كل الذين يدخلون الهياكل ويصلون القداسات ويتناولون جسد الرب ودمه، بأنهم يتناولون "جسد المسيح الممجد، أم أنهم يتناولون جسد المسيح قبل القيامة؟ وجاء السؤال غريباً على آذان بعضهم. هل نحن نشترك في جسد آدمي طبيعي، أم جسد ابن الله الكلمة الذي لم ينفصل لاهوته عن ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين؟

وساد صمتٌ جديد. لأننا إن كنا نتناول جسداً آدمياً مثل أجسادنا، فإننا – كما قال القديس كيرلس السكندري – نصبح من "آكلي لحوم البشر"، وهذا يهدم سر الإفخارستيا من جذوره.

انتهى الحوار على أن النظافة شيء لا علاقة له بالتقديس، وطبعاً برز موضوع "وقار واحترام الأسرار"، وهو موضوع يدخل في التقدير الشخصي، وحُكم الضمير، وظروف من يرغب في التناول، وليس له علاقة بالعقيدة أو الممارسة الصحيحة.

الاحتمال الثاني

هو اعتناق تعليم نسطور، وهو احتمال مبني على نص صريح عند الأنبا شنودة يقول فيه إننا نتناول الناسوت لأن الرب لم يقُل "خذوا كلوا هذا هو لاهوتي". هذا الاحتمال وارد – حسب كلمات الأنبا شنودة نفسه – وبالتالي لم يدخل تجديد الجسد في تدبير الخلاص في النسطورية التي أنكرت الاتحاد الأقنومي لله الكلمة، والمجد الإلهي الذي أخذه هذا الجسد بسبب الاتحاد الأقنومي حتى أنه صار "الجسد المحيي" حسب اعترافنا في الليتورجية.

الاحتمال الثالث

هو مجرد مقاومة الأب متى المسكين لإضعاف دوره الرائد، وإن كان هذا يتم على حساب الإيمان والعقيدة، وهو أمر خطير جداً يجب أن يقاوم بكل ما نملك.

الاحتمال الرابع

وهو أضعف الاحتمالات، وهو وقوع الأنبا شنودة وسقوطه في بدعة "أوطاخي"، وهو ما تجده تحت الاعتراضات التي أبداها على الشركة في الطبيعة الإلهية، حيث قال إن الشركة في الطبيعة الإلهية تعني تحوُّل الإنسان إلى إله غير محدود، بلا خطية .. الخ كل ذلك من تحولات تنكر بقاء الطبيعة المخلوقة، أو الإنسان كإنسان؛ لأن – حتى – الناسوت في الاتحاد الأقنومي ظل طبيعة إنسانية رغم المجد الإلهي وعدم الموت وعدم الفساد الذي ناله بالاتحاد.

وهذا الاحتمال، رغم ضعفه، يجد سنده فيما كتبه الأنبا شنودة من مقالات ضد شهود يهوه، كانت قد نشرت في مجلة مدارس الأحد، يقول فيها إن المسيح هو الله لأن جسده إلهيٌ من الروح القدس. في حين أن الحقيقة الإيمانية تؤكد على أن الجسد المولود من العذراء القديسة مريم ليس جسداً إلهياً، بل جسد بشري حسب تعبير أبينا العظيم حقاً في البطاركة - بدفاعه عن الإيمان — والذي هو وحده - دون غيره من بطاركة الإسكندرية - ثالث عشر الرسل، الذي كتب عن جسد الكلمة قائلاً: إنه جسد قابل للموت مثل كل أجساد البشر.

تخبُّط

بالطبع، لا يوجد في الحقيقة خط واحد بربط بين هذه الاحتمالات، ولذلك ترى تخبطاً بين النسطورية التي تنكر الإتحاد الأقنومي، والأوطاخية التي تنكر بقاء الطبيعة الإنسانية، وبالتالي ذوبانها كنقطة الخل في مياه البحر.

والذين يدافعون عن "سيدهم" بكل أدوات الكذب، يظنون أن عبارة من هنا وعبارة من هناك تكفي لبناء دفاع حار مجيد، لكن ما هو ظاهر لكل من يؤمن بالمسيح أن إيماننا ليس إيماناً لفظياً يُرتزق منه، بل هو إيمان مَن يمسك في يديه جسد الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح، ويقول بصوت الكنيسة الجامعة: جسد ودم عمانوئيل إلهنا، هذا هو بالحقيقة آمين. وبالتالي عندما يقولون إننا نأخذ الناسوت فقط، فهم لم ينكروا الإتحاد الأقنومي فقط، بل ينكرون تجسد ابن الله نفسه وعمل الفداء.



موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب بباوي

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الثانية

www.coptology.com

Coptology

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الثانية

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٠٩

التجسُّد
هو الأساس الذي بُني عليه الصليب والقيامة والصعود، وحدد لنا المصير الأبدي للإنسانية

الأساس التاريخي الذي حاولنا أن نضعه في الإكليريكية:

يعرف كل الذين درسوا معنا في فرع الكلية الإكليريكية بطنطا أننا حاولنا قدر الجهد، وفي إطار ما سمحت به الظروف أن نضع المنهج الأرثوذكسي الصحيح لدراسة اللاهوت. ولقد حرصنا على أن تجيء الدراسة المنهجية مبنية على أساس لاهوت الإسكندرية، وكان سبيلنا إلى ذلك:

أولاً: الكتب الدراسية، مثل تجسد الكلمة، الذي وُضِعَ حسب عبارات مؤلفة نفسه – وهو القديس أثناسيوس – من أجل تقديم الإيمان وشرحه، وربما – كما يبدو من الموضوعات وطريقة العرض نفسها – للموعوظين. ولذلك لم يتعرض القديس أثناسيوس للعشاء الرباني، عن عمد، بينما أبرز المعمودية؛ لأن العشاء الرباني كان ضمن "التعليم السري" الذي لا يذاع لغير المؤمنين حسب ترتيب الكنيسة الأرثوذكسية.

كذلك قمنا بترجمة كتاب رسائل القديس أثناسيوس إلى سرابيون عن الروح القدس، ثم ترجمة كتاب القديس باسيليوس عن "الروح القدس". وإذ توفر لدينا كتابين عن عمل الروح القدس، فقد أصبح الأساس التاريخي للتعليم الخاص عن الأقنوم الثالث

ثابتاً.

ثم أضفنا إلى كتاب تجسد الكلمة، ترجمة كتاب "شرح تجسد الابن الوحيد"، ثم كتاب "المسيح واحد"، ثم مقالة "شرح قانون الإيمان". وكانت هذه هي أول كتب كاملة للقديس كيرلس السكندري تُنشر منذ القرن الخامس.

ثانياً: لم يكن لدينا كتاب واحد - ولا زال الوضع كما هو – يضع العقيدة الأرثوذكسية على أساس لاهوتي آبائي وتاريخي صحيح، ولذلك كانت نقطة البداية هي العودة إلى ذات الموضوع الذي شغل بداية كتاب تجسد الكلمة، وهو خلق الإنسان على صورة الله. ولذلك أصدرنا دراستنا عن: "الإنسان صورة الله"، وقد نُشرت مطبوعة بالآلة الكاتبة في طنطا، ثم أتبعناها بدراسة عن "العذراء حواء الثانية". ونشرنا "رسائل القديس أغناطيوس الأنطاكي"، ثم دراستنا عن "شرح القداس الباسيلي"، وكتاب "المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي"، ثم جاء دور كتاب "المعمودية في القرون الخمسة الأولى"، ثم نشرنا "حوارٌ عن الثالوث"، ثم دراستنا عن "هل تؤمن المسيحية بإله واحد؟".

ثالثاً: عندما صدرت دراستنا عن "التسليم أو التقليد الكنسي"، طلبت من نيافة الأنبا يوأنس أن يكلف أحد كهنة المحلة الكبرى بالتدريس، وكان خريجاً من خريجي الكلية الإكليريكية – القسم النهاري – فأخذ المذكرة وأعاد كتابتها بروح "كُتَّاب الأنبا رويس" على طريقة أن لكل دين تقليد (وإن كان هذا في حد ذاته صحيحاً)، ولذلك كما يوجد تقليد في اليهودية كذلك يوجد تقليد في المسيحية.

وانزعجت؛ لأن دور التقليد الكنسي في المسيحية ليس هو نفس الدور في الديانات الأخرى. وتبين أن التسليم الكنسي أو التقليد هو موضوع غائب تماماً من الوعي القبطي المعاصر.

إضافة إلى ذلك، فإن طريقة الكتابة وجَّهت النظر إلى ضرورة إعادة اكتشاف

موضوع غائب تماماً عن الوعي القبطي المعاصر، كان الأب متى المسكين قد لمحه وأشار إليه في لطف ورقة، جلبت عليه سيل من الشتائم والإهانات. هذا الموضوع هو أن **التسليم الكنسي** يختلف اختلافاً تاماً عما يسمى بالتقليد في أي دين آخر، ويتبدى هذا الاختلاف بصفة أساسية في:

١- إن التسليم الكنسي هو مجال استعلان قيادة الروح القدس في كرازة وتعليم القديسين. هذا غير معروف بالمرة في اليهودية والإسلام.

٢- إن التسليم الكنسي يعبِّر عن اتساع مجال الرؤيا أمام تحدي الهرطقات بحيث لا يقف التعليم عند وضع مصطلحات لاهوتية مثل ***Homo - ousios*** بل إلى وضع رؤية شاملة تقوم، ليس على استخدام كلمات معينة، بل على تحديد دائرة الإيمان على أساس الخلاص نفسه. بكلمات أخرى: لا يقتصر الدفاع عن إلوهية الابن – كأحد دعائم التدبير – مثلاً على استخدام تعبير "الواحد مع الآب في الجوهر" أو غيرها، بل اعتبار أن وحدة جوهر اللاهوت في الثالوث نفسه هي مصدر خلاص الإنسان نفسه، الخلاص الأبدي.

٣- إن التسليم الكنسي هو أيضاً التقوى والقداسة الأرثوذكسية التي لا تسمح بفصل الإنسان عن الله الثالوث، أو بوضع التعليم عن الأسرار، لا سيما أسرار الانضمام إلى جسد المسيح، كرؤيا عقلية فلسفية، بل كرؤيا مستيكية ***Mystical*** هي عمل الروح القدس في "استنارة الإنسان"، وشركته في الحياة الإلهية (١ يو ١: ١ — ٣، ٢ بط ١: ٣ – ٤).

ولذلك عندما احتدم الجدل المرير والحاد حول قبول سُكنى أقنوم الروح القدس نفسه، كان شغل جماعة الأنبا شنودة الشاغل – وبكل أسف وحزن كان أستاذنا الفاضل الأنبا غريغوريوس هو أول من بدأ بهذا التمييز الخطير بين الأقنوم والمواهب – كان شغل هؤلاء الشاغل هو إنكار سكنى وحلول الروح القدس

والاكتفاء بالحديث عن المواهب، بل تطور تعبير هؤلاء إلى اختراع تعبير جديد "حلول مواهب"لكي يغلق هذا التعبير الطريق أمام العمل الأبدي للروح القدس هنا في هذا الزمان، وفي الأبدية أيضاً، وهو أمر ينطوي على قدر هائل من الخطورة.

هذا الإنكار ساهم — فيما بعد – في مزيد من التخبط الذي رأيناه فيما بعد؛ لأن عدم حلول الروح القدس وسكناه في النفس = ضياع الأسرار كلها، ليس المعمودية — الميرون — الإفخارستيا فقط، بل وحتى الكهنوت نفسه؛ لأن الله – عندئذٍ – لا يعود هو الذي يخدم في الكنيسة، بل بشرٌ مائتون وخطاة.

رابعاً: عندما كثر الجدل حول كتاب "الكنيسة الخالدة"، وكتاب "العنصرة"، وغيرهما من كُتب الأب متى المسكين، أصدرنا دراستنا عن "الواحد والجماعة، أساس السقوط والخلاص في العهد القديم" ليس دفاعاً عن كتاب، وليس دفاعاً عن أحد، بل دفاعاً عن حقيقة غائبة عن الوعي نفسه، وهي حقيقة "الكنيسة جسد المسيح".

غياب هذه الحقيقة، تسبب في أن يغيب عن الوعي الكنسي حقيقة أن بدايةً جديدةً قد صارت لنا في آدم الأخير عندما أخذ الرب يسوع إلى أقنومه الإلهي، الجنس البشري (ضد الوثنيين ٣: ٦٥ – ٦٦).

وهكذا بات من الواضح أننا أمام مأساة وتراجيديا أشبه بما عرفناه من المسرح اليوناني القديم؛ لأننا ما زلنا نتمسك بكل ما نعرفه عن آدم الأول ولا نريد التقدم أو التحوُّل إلى آدم الجديد أو الأخير يسوع المسيح ربنا. وهذه مصيبة كبرى؛ لأننا بالبقاء في آدم الأول نصبح في الحقيقة مرتدِّين عن الإيمان والنعمة، لا مسيحيين، رغم ما نردده من كلمات وعبارات من الكتاب المقدس أو صلوات الكنيسة.

وهكذا كان طبيعياً أن نصل – في مرحلة تالية – لإنكار شركتنا في الله، وبالتالي تفسير نص ٢بطرس ١: ٣ تفسيراً خاصاً بعيداً عن الرؤية الشاملة التي تحدد الإيمان على أساس الخلاص. فقد غاب عن بعض المفسرين – بكل أسف – أن الإنجيل

ليس تتريلاً، ولا هو مجرد ترتيلة من التراتيل، وبالتالي هناك مسألة أكبر من شرح أو تفسير عبارة؛ لأننا تلاميذ مَن قال: "أنا الحياة"، تحكمنا الحياة وهي الشركة، ولا يحكمنا الحرف أو النص خارج الرؤية الشاملة للإيمان. وهنا يمكننا أن نسأل هذا السؤال: إن كانت كل فرص الشركة في طبيعة الله منعدمة تماماً، فكيف يمكن شرح حقيقة الحياة الأبدية كنعمة وُهِبَت لنا في المسيح يسوع؟

وإذا قلنا إن الله هو وحده الأبدي حسب جوهر حياته الفائق، وقلنا إن الإنسان وُهِبَ نعمة الحياة الأبدية في المسيح، فهل يعني هذا أنه يوجد نوعان من الأبدية، واحدة إلهية والثانية مخلوقة؟

عجباً!! كيف يمكن خلق الأبدي؟

والأعجب من هذا، إذا كان الإنسانُ أبدياً حسب جوهر حياته، ألا يكون إلهاً بالطبيعة، وبالتالي يتعذَّر طرده من الجنة؟

أمَّا الأعجب من الكل، هو أن يهاجم أحد الكتاب الشركة في الطبيعة الإلهية، ورغم ذلك يدَّعي بكل ما لديه من جرأة على الكذب والتدليس أنه يؤمن بأن الإنسان له حياة أبدية في الله بالمسيح. كيف ننال حياة أبدية – في المسيح – مخلوقة ومنفصلة عن طبيعة الحياة غير المخلوقة "الله العظيم الأبدي" (صلاة الصلح). وهذا في حقيقة الأمر هو إنكار مبطن لإلوهية الرب يسوع – الذي يصبح في هذه الحالة – غير قادر على أن يهب الحياة الأبدية الإلهية لأنه مخلوق، ولا يملكها!!!

لا توجد عقائد منفصلة عن بعضها

بالرغم من الفوائد والغنى الذي نتج عن تقسيم علوم اللاهوت إلى عقيدي – نظامي – تاريخي – دفاعي ... الخ ، إلاَّ أن هذا التقسيم في حد ذاته أضعف الرؤيا وفتَّت الوحدة العقائدية. في حين أنه – أرثوذكسياً - لا يمكن أن نفصل عقيدة

الثالوث عن التجسُّد، ولا التجسُّد عن الإفخارستيا. ولا اتحاد اللاهوت بالناسوت في أقنوم الرب يسوع الواحد عن الكنيسة جسد المسيح. كما لا يمكن فصل المعمودية عن الميرون، أو عن وحدة عمل الثالوث في خلاص الإنسان. ومَن يفصل الحياة الأبدية عن سُكنى الروح القدس فينا يجعل الإنسان أبدياً بالطبيعة أي إلهاً، وغير قابل للموت، وكأن المسيح لم يفدِنا من موت الخطية، بل من الموت البيولوجي الطبيعي!

مثال واضح من كتاب تجسد الكلمة

يؤكد القديس أثناسيوس أن تجسد الكلمة الابن هو لإعلان الآب نفسه وتقديم الإنسانية لله الآب في شخصه (تجسد الكلمة ١١: ٣). هذا الهدف هو الذي جعل الابن يبيد الموت والفساد بموته، ويرفع حكم الموت، ويعلن محبة البشر، ويجدد الطبيعة الإنسانية، ويرد إليها نعمة الصورة. كل هذا لكي يعطي لنا شركةً في حياة الثالوث. وقد عبَّر القديس أثناسيوس عن ذلك بعدة تشبيهات سوف ندرسها في موضعها، لكن عندما يختفي إعلان الآب كأحد أهداف التجسد، يصبح من السهل حصر عمل الابن المتجسد في إرضاء الآب ودفع الفدية والدين، وهي عبارات سوف ندرسها في حينها.

وعندما يغيب إعلان الآب بواسطة الكلمة المتجسد، يصبح التجسد قاصراً على عمل الرب يسوع ويختفي دور الآب، بل ومعه دور الروح القدس. ولكن القديس أثناسيوس لم يقع في هذا الخطأ الشنيع؛ لأن التجسد يعلن الثالوث:

أولاً: برد معرفة الإنسان بالآب.

وثانياً: بقبول الروح القدس في تجديد المعمودية.

ما هو سر وحدة العقائد؟

تشبه العقائد – إلى حدٍ كبير – الدورة الدموية، أو انسجام وظائف أعضاء

الجسد.

لنبدأ – على سبيل المثال، وهنا أي مثال صالح – بموت الرب يسوع على الصليب.

يستدعي موت الرب على الصليب تحديد أسباب هذا الموت. كما أن أي تعليم عن سقوط الإنسان الأول، يحدد الأرضية التي نبني عليها ما حدث على الصليب. وأي خطأ في فهم سقوط الإنسان يؤدي بالتالي إلى العجز عن فهم **موت الرب المحيي** فهماً صحيحاً.

وهذا هو التسلسل والترابط الذي تسلمناه من الآباء:

١– اختار الإنسان الأول الموت بحريته.

٢– سيادة الموت على الإنسان؛ لأنه ترك الشركة.

٣– شُوِّهت عطية الصورة الإلهية. وعندما نقول نُزِعَتْ أو فَسَدَتْ، فهذا لا يعني بالمرة أنها ضاعت تماماً، وإنما ضُرِبَتْ بالموت والفساد.

٤– ضياع نعمة الحياة الأبدية.

٥– فقدان الشركة مع الله الثالوث.

هذا يستدعي كما سنرى من العرض الدقيق الذي يقدِّمه المعلم السكندري أثناسيوس:

١– احتياج الإنسان إلى الخالق الكلمة الذي خلقه من العدم لكي يرد إليه نعمة الصورة؛ لأن الإنسان كان منذ البدء شريكاً للكلمة يتبعه مثل تبعية الظل للنور (تجسد الكلمة ٣: ٣).

هنا بشكل خاص يصبح تحديد الحاجة إلى إلوهية الكلمة هو احتياج إلى من يملك رد ما فُقِدَ، أي إلى الخالق ذاته. هنا بالذات تفترق الطرق، طريق الكنيسة الأرثوذكسية، عن طريق الكنيسة الغربية لا سيما بعد ظهور القديس أنسلم (١٠٣٣

– ١١٠٩م).

٢– لم يكن السقوط إهانةً لله، وبالتالي لا يحتاج إلى من يرد له كرامته، أو يدفع له الفدية.

٣– كان السقوط **تحولاً في كيان الإنسان من الحياة إلى الموت. من صورة الله إلى صورةٍ لنفسه،** وهو ما سوف نناقشه على مهل وفي أناة في المحاضرة التالية. ولعل القارئ قد لاحظ أن القديس أثناسيوس يبدأ أولاً بخلق الكون، وثانياً بخلق الإنسان.

الإنسان هو نقطة البداية، وهو الموضوع الأصلي والجوهري. ليست المشكلة هي مشكلة الله، بل هي مشكلة الإنسان. ولأنها مشكلة أو مصيبة الإنسان، بل والكون كله، فقد كان على الخالق أن يتدخل، وأن يعيد ما ضاع وفسد.

ومرةً ثانيةً تفترق الطرق.

الطريق الأول: هو محبة الله الخاصة للجنس البشري الذي وُهِبَ أن يكون مخلوقاً على صورة الله. وتدخُّل الله هو تدخُّل الخالق "الحر" و"كلي الصلاح"، ولاحظ أن أثناسيوس يضع هنا قاعدة لاهوتية هامة مؤداها:

"الله كلي الصلاح لا يبخل بشيء" (تجسد الكلمة ٣:٣).

تدخُّل الله لم يكن عن إصرارٍ فَرَضَه قانونٌ أو شريعة، بل كان تدخُّل الصلاح والمحبة. وإذا فشلنا في فهم هذه النقطة بالذات، نكون قد سرنا في الطريق الثاني، وهو الطريق الذي يضع الشروط لتدبير الفداء أو الخلاص على النحو الذي نراه عند دائرة الإكليروس القبطي المعاصر المحيط بالأنبا شنودة، وبالتالي فإن تشوه الإيمان نفسه يصبح ظاهراً لمن يعرف أن يرى:

أولاً: ليس لدى الله أي التزام أو ضرورة يخضع لها الله نفسه تحتم عليه أن يعمل. هو ليس مسئولاً أمام إله آخر ولا أمام نظام أو حتى أمام الخليقة نفسها.

ثانياً: إذا كانت طبيعة الله هي المحبة والصلاح، فإن المحبة لا تعمل إلاَّ بالحرية. ولو فُرِضَت على المحبة أي قيود – مهما كانت – فقدت حركتها الطبيعية في العطاء.

ثالثاً: لم ينتبه الذين فرضوا شروطاً على الله لكي يفدي الإنسان أنهم أعادوا إلى المسيحية التعليم اليهودي بوساطة الشريعة؛ لأن الشريعة لا تعني إلاَّ الشروط والقانون، ولذلك رفضوا موضوع التبرير بالإيمان، ولهذا صدرت مقالات تهاجم الأب متى المسكين باسم "الناموس والأعمال"، وهكذا وقع الأنبا شنودة ودائرته في خطأ تصوُّر أن الإنسان يتبرر "بالإيمان والأعمال"، وهو ما لا وجود له في العهد الجديد، ولا عند الآباء.

إن سلوك الإنسان المقدس لا يعطي له الغفران أو القبول، بل فقط يحفظه في النعمة والشركة.

وحتى إخوتنا في الكنيسة الإنجيلية، عندما أبرزوا موضوع "التبرير بالإيمان"، فرضوا على موت الرب أن يصبح حدثاً تاريخياً غاب في أعماق التاريخ، فقد صدر حكم البراءة منذ ٢٠٠٠ سنة تقريباً وما على الإنسان إلاَّ أن يصدِّق ويقبل، ولم يعد للصليب نفسه أي وجود في الحاضر إلاَّ من خلال عقل المؤمنين، أي أنه أصبح فكرةً عقلية. وهذا يذكِّرني بحديث طويل مع صديق معمداني دعاني للوعظ في كنيسته، وعندما رشمت الصليب قبل العظة قال لي في ثقة مفرطة بعد العظة وأمام الشعب: "أنت تضع علامة اللعنة على نفسك"، وكان ردي حاسماً: إن الصليب هو علامة المصالحة؛ لأن الرسول يقول: "إن الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه وواضعاً فينا خدمة المصالحة" (٢كور ٥: ١٨) وأُسقِطَ في يد الرجل، وطبعاً لم يدعُني للوعظ مرةً أخرى، وهذه خسارته هو وشعبه.

خلف فكر هذا الرجل، عبارات الرسول بولس "المسيح صار لعنة" (غلا ٣: ١٣). ولكن يجب أن يكون واضحاً أنه لم يتحول إلى لعنة. هذه ليست مسألة تفسير؛

لأنه لم "يَصِر موتاً" عندما مات على الصليب. و لم "يًصِر قبراً" لأنه دُفن في القبر. لم يحدث تحولٌ في كيان الرب، وإنما قَبِلَ الربُ كل هذه لأجلنا، وليس لأجل إرضاء الله لأنه هو الله.

مكانة ومقام الكلمة

لقد شدد القديس أثناسيوس على مكانة ومقام الكلمة لكي يؤكد:

١– محبة الكلمة للإنسانية التي جعلته يعطي نصيباً للإنسان في قدرته العاقلة.

٢– العلاقة الخاصة بين الكلمة والآب.

وكلتا النقطتين تمثل بداية التسلسل:

١– الكلمة خالق، ولذلك هو لا يقبل أن يرى انحلال وسقوط الخليقة. كان بالأولى ألاَّ يخلق؛ لأن ترك الخليقة يعلن عدم صلاح الله الكلمة، وبالتالي عدم صلاح الآب نفسه.

٢– إن ما يذكره القديس أثناسيوس عن الكلمة، إنما يذكره عن الآب أيضاً، ليس فقط بسبب وحدة الجوهر، وإنما لأنه في هذه الفترة من تاريخ الكنيسة لم يكن قد وُلِدَ تعليمٌ يحصر الخلاص في الابن وحده. لقد كان الثالوث هو الأساس الأبدي لكل ما يقال عن الإنسان والله والكنيسة .... الخ.

٣– الكلمة لم يكن له جسد، فهو الإله الذي قَبِلَ التجسُّد بسبب محبته للبشر. وعندما أخذ الجسد من العذراء وبدون زواج أكَّد أنه الإله الخالق (تجسد الكلمة ٨: ٣). كما أكد أثناسيوس على ثلاثة أشياء تعبِّر عن الملامح العامة لسر الإفخارستيا، وكنا قد أشرنا من قبل إلى أننا نأخذ المسيح الحي من الأموات في الإفخارستيا، نأخذه غالباً لا مغلوباً، فادياً لا ثمناً يُدفع للآب، مخلصاً لا خاطئاً يقع تحت طائلة العدل الإلهي، وهنا بالذات تظهر ملامح "السر المجيد" فهي:

أولاً: المسيح هو الحياة، ولذلك بعد أن قَبِلَ موت الجسد، أحيا الجسد وقدَّس الجسد، لأنه من الصعب جداً على من له بصيرة روحية أرثوذكسية أن يقبل أن إتحاد أقنوم الكلمة بالجسد لم يأتِ بأي تغيير في الجسد، وكما يظن السذج والذين يحاربون – بكل ما فيهم من بغضة وعداوة – الإيمان بالشركة، بأن الجسد ظل كما هو، أي قابلاً للموت حتى بعد القيامة، فطبيعة الأجساد الإنسانية هي عدم البقاء، لكن ذلك الذي أقام الموتى بدد فساد الجسد، بل وجعله بعد القيامة غير قابل للآلام الجسدانية بالمرة لأنه قام بغير فساد.

ثانياً: جسدٌ لا يقبل الانقسام رغم أنه يوزَّع على المتناولين؛ لأن الانقسام هو جزء من الموت. وصلاة القسمة هي صلاة خاصة بتوزيع الأنصبة، أو الميراث، وليست لتقسيم جسد الرب، بل لتوزيع ذاك الذي يجمع كل أبناء الله المتفرقين إلى واحد.

ثالثاً: جسد مجده (فيلبي ٣: ٢١)، وهو جسد لا يفسد، يُطهِّر المتناولين، يُعطى "غفراناً وحياةً أبديةً لمن يتناول منه"، حسب صلوات التقوى الأرثوذكسية. و لم يسأل الذين يقاومون الأرثوذكسية من داخل الكنيسة ويحاربونها بسلطان كهنوت أعطوه لأنفسهم، كيف يعطي تناول جسد الرب ودمه الحياة الأبدية إذا كان جسداً طبيعياً لم يأخذ أي شيء من صفات اللاهوت، أي لم يصبح جسداً محيياً، أو كما يقول أغناطيوس الأنطاكي "ترياق عدم الموت" (أفسس :٢٠)، فكيف يعطي جسد الرب الحياة الأبدية لمن يتناول منه إن لم يكن هذا الجسد قد تألَّه، أي اشترك في طبيعة الحياة الغالبة التي هي طبيعة الله الكلمة؟

الميلاد من العذراء والمعمودية في نهر الأردن:

إذا كان الرب قد وُلِدَ من العذراء بالروح القدس، أي كوَّن الروحُ القدس جسده، فلماذا احتاج الرب في تدبير الخلاص أن يعتمد؟

من الصواب أن نقول إن معموديته كانت الظهور الإلهي للثالوث، ولكن هذا الظهور لم يكن لأجل الرب ولا لأجل الآب، بل لأجلنا. وهكذا عندما يقول أثناسيوس إن الرب اعتمد واغتسل في نهر الأردن، كنَّا نحن الذين اغتسلنا فيه، وعندما مُسِحَ كنَّا نحن الذين مُسحنا فيه، وعندما تقدَّس كنَّا نحن الذين تقدَّسنا فيه وبه، فإن هذا ضروري جداً لفهم ثلاث عقائد لا يمكن تقسيمها:

أولاً: الميلاد من العذراء بالروح القدس والذي أدخل الروح في تكوين الخليقة الجديدة. بهذا نقل الرب يسوع الجنس البشري من آدم الأول إلى ذاته، إلى أقنومه لكي نولد نحن به وفيه كما وُلِدَ هو. ومن يسخر من عبارة "بيت لحم مسقط رأس البشرية المفتداة" فهو يسخر من تحوُّل الإنسانية من آدم إلى المسيح؛ لأنه لم يستوعب سر آدم الجديد أو الثاني.

نحن نولد بيولوجياً من آدم الأول وهذا – كما هو معروف – بالتناسل. هذا يؤدي إلى الموت، لكننا نولد في المسيح ميلاداً جديداً جاءت به البداية الجديدة للجنس البشري، ميلاداً روحياً يفوق الميلاد البيولوجي من الماء والروح وفي سر المعمودية، هذا هو طريق الحياة. ميلاداً بدون زرع بشر أو إرادة رجل وامرأة في الزواج لا دخل للجسد فيه ولا شأن للإرادة الإنسانية به؛ لأنها عاجزة. ولأن الميلاد من فوق، فهو يخضع لما نعرفه عن الملكوت، وهو عمل الروح القدس.

ثانياً: مسحة الرب بعد معموديته، يقول عنها الإنجيلي يوحنا: "أما أنتم فلكم مسحة من القدوس .." (١يوحنا ٢: ٢٠). لقد مُسحنا فيه ومسحتنا منه؛ لأنه هو رأس الإنسانية الجديد، ولذلك كان صعباً علينا أن نقبل تمزيق الروح القدس إلى أقنوم ومواهب؛ لأن الرب يسوع لم يُمسح لكي ينال مواهب الروح، بل نال لأجلنا "روح البنوة". وصار من الواضح أن العبث في عقيدة أساسية، وهي نقل الإنسان من آدم الأول إلى المسيح هو نقلٌ من العبودية إلى البنوة. وهي ليست علاقة شرفية كما يقول

مَن يرددون كلام الأنبا شنودة دون وعي، ودون أن يدركوا أنه عندما يقول إن التبني كان معروفاً في العهد القديم، إنما هو يضرب التبني ذاته لأن الفرق بين عهد الشريعة وعهد النعمة ليس واضحاً في ذهنه (رو ٩: ٤). والمشكلة ليست في أن التبني كان معروفاً في العهد القديم؛ لأن هذا صحيح؛ لأن الله يقول عن إسرائيل "ربيت بنين ..." (أش ١: ٢)، ولكن هل ما كان معروفاً في العهد القديم هو ما أخذناه من المسيح في العهد الجديد؟ لماذا هذا المسخ والتخبط؟ هل كان في العهد القديم معمودية مثل معمودية الإنجيل؟ هل كان التبني لكل البشر أم لبني إسرائيل فقط؟ هل كان روح البنوة لكل الشعب أم للملوك والأنبياء فقط؟ لماذا هذا التشويه والحذف الذي إن كان عن جهل فهذه مصيبة، وأن كان عن عمد فهذه مأساة أكبر من أي مصيبة؛ لأن الجالس على كرسي مار مرقس يحاول تدمير عطية الله لمجرد أنه يكره كاتب هذه السطور ويبغض الأب متى المسكين، ولذلك يسعى جاهداً للبحث عن أخطاء لا وجود لها إلاَّ في عقله وحده.

ثالثاً: المسيح يجمع في شخصه ميلاده ومعموديته، ويجب أن نضيف أيضاً أنه يجمع في شخصه موته المحيي وقيامته وصعوده ومجده الإلهي. ما الذي يوحِّد كل هذه العقائد؟ هو شخص المسيح، ولذلك نحن نُولد ونُمسح ونتناول في أسرار الانضمام إلى الكنيسة: المعمودية – المسحة – الإفخارستيا.

أقنوم الكلمة يوحِّد كل العقائد في شخصه؛ لأنها إعلانات عن الخلاص:

عندما نشرت مجلة مرقس مقالة "لماذا اعتمد يسوع؟"، وكانت مقالات الأب متى المسكين "أعياد الظهور الإلهي" قد كتبت تباعاً. وضعني الأنبا شنودة في قائمة المطرودين. هذا ما سمعته بنفسي ولم يكن مزاحاً وقفشات. كانت المسألة هي مسألة وقت لا غير. لكننا لا نعيش ونجاهر بالإنجيل من أجل إرضاء الناس؛ لأن الدينونة في

اليوم الأخير هي على الإيمان وليست على ما نقدمه من ذبائح الحمد والشكر للبشر.

ما الذي أعلنه الكلمة بتجسده وموته وقيامته؟

١- حقاً وبكل يقين لقد أعلن عن نفسه، وعن الآب والروح القدس.

٢- لكنه لم يكن مثل ممثلٍ على مسرح، بل كان ولا يزال "الراعي الصالح" الذي جاء لكي يجمع الخراف الضالة. كل إعلان عن ذاته كان إعلاناً عن رسوخ وبقاء العلاقة الجديدة التي جاء بها.

ما نوع هذه العلاقة؟

لم يسأل أحدٌ هذا السؤال، ربما عن سهو. لكن إذا كانت كل حياة الرب يسوع قبل ميلاده بالجسد حتى صعوده إلى السماء هي إعلانات عن الخلاص. فما هي العلاقة التي أُسِّسَت في هذه الإعلانات.

١- كان الناسوت الذي أخذه من والدة الإله هو ناسوت لا يختلف عن أجسادنا. كنا نحن فيه بسبب إتحادنا معاً في طبيعة إنسانية واحدة.

٢- لم يكن الناسوت غريباً أو خارجاً عن أقنوم الابن، بل سكن في الجسد، حلَّ بالجسد، اتخذ الجسد وجعله "أداة". كان الناسوت فيه.

٣- وفيه تحول الناسوت من الموت والفساد إلى عدم الموت وعدم الفساد وعدم الألم. هذا التحول الإرادي تم في الداخل، ولكنه تم مُعلَناً أيضاً في الخارج. ولكي يعلن الكلمة عن هذا التحول، وُلِدَ – مُسِحَ – مات – دُفِنَ – قام – ثم صعد حياً.

* وُلِدَ، فوضع أساس البداية الجديدة.
* مُسِحَ، فأسس المسحة لكي ننال فيه مسحتنا.
* مات، فقهر الموت على الصليب.
* قام، فأعلن الخلود.
* صَعِدَ، فجلس عن يمين الآب، وأعد لنا طريقاً جديداً لكي نجلس معه على

ذات عرشه الإلهي (رؤ ٣: ١٧ – ٢١).

فإذا كانت هذه علاقة تحوُّل يتم في داخل كيان الابن المتجسد، فمن هو المستفيد؟

لا يستطيع إلاَّ مكابر أو جاهل أن يقول: "كان الرب محتاجاً"، ولكن الذي يسعى إلى الشركة والإتحاد بالمسيح هو الذي يطلب هذه الشركة وهو الذي يطلب الإتحاد.

إتحاد اللاهوت بالناسوت هو أساس إتحادنا بالرب يسوع:

تحول ناسوت الرب بسبب حلول وسكنى الكلمة فيه حسب كلمات القديس أثناسيوس هو:

"الكلمة غير مائت لأنه ابن الآب غير المائت" (تجسد الكلمة ٩: ١).

فالكلمة يشترك مع الآب في ذات الصفة الأقنومية وهي "عدم الموت".

ولكن الكلمة غير المائت:

"اتخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت، حتى إنه عندما يتحد هذا الجسد بالكلمة الذي هو فوق الجميع[1] يصبح جديراً ليس فقط أن يموت عن الجميع، بل ويبقى في عدم فساد بسبب إتحاد الكلمة به" (تجسد الكلمة ٩ : ١).

إن ما تحقق في الرب يسوع، إنما يتحقق فينا نحن، وإلاَّ فَقَدَ التجسدُ غايته، ولذلك يقول أثناسيوس:

"ومن ذلك الحين فصاعداً يُمنع الفساد من أن يسري في جميع

---

(١) فوق الجميع لأن جوهره يعلو على كل المخلوقات.

البشر بنعمة القيامة من الأموات" (تجسد الكلمة ٩: ١).

علينا أن نلاحظ أن ما تم من تحول هو خاص بالجنس البشري كله وليس بالمسيحيين فقط، ولذلك فعبارة "جميع البشر" هي عن "نعمة القيامة" العامة التي أُعطيت لكل الإنسانية كلها. فلا قيامة عامة للجنس البشري خارج المسيح[1].

لقد جاء الإتحاد بما هو غير ممكن لقدرات الإنسان:

"وهكذا باتخاذه جسداً مماثلاً لجسد جميع البشر، وباتحاده بهم، فإن ابن الله عديم الفساد ألبس الجميع عدم الفساد بوعد القيامة من الأموات"، بل لقد فَقَدَ الفسادُ (سلطانه) على البشر بسبب الكلمة الذي جاء وسكن بينهم بواسطة جسده" (تجسد الكلمة ٩: ٢).

هكذا جاء التجسد بتحول تام في كيان الإنسانية كلها، وصار تجسد الكلمة هو اتحاد الكلمة بكل البشر. وقد أدرك القديس أثناسيوس أهمية هذه النقطة بالذات فقدم تشبيهاً عن دخول ملك عظيم إلى مدينة كبيرة وسكناه في أحد بيوتها. ونتيجة هذا هو حماية هذه المدينة من أي "عدو أو عصابة" (تجسد الكلمة ٩: ٣)، ويختم بقوله:

"هكذا كان الحال مع ملك الكل" (تجسد الكلمة ٩: ٣).

لقد أبطل التجسُّد فساد الموت ومنع هلاك الجنس البشري؛

"لأن الجنس البشري كان سيهلك بالتمام لو لم يكن رب الكل ومخلص الجميع ابن الله قد جاء ليضع حداً للموت" (تجسد الكلمة ٩: ٤).

---

(١) راجع مقالنا "القيامة العامة أم قيامة المسيح" منشور على هذا الموقع.

شمولية الخلاص من الفساد والقيامة للجنس البشري:

لعل ما يجب أن نختم به هذه المحاضرة هو أن التعليم القديم الذي نكاد ننساه في تصاعد المد الأصولي والتعصب هو أن المسيح ابن الله الكلمة جاء لكي يخلص الجنس البشري. ولقب الرب "محب البشر" ليس قاصراً على محبة خاصة للمسيحيين، بل محبة شاملة للجنس البشري.

هذا لا ينفي بالمرة العلاقات الخاصة مع الله الكلمة المتجسد، ولا يحول علاقة المسيح كرأس الجسد الكنيسة إلى علاقة خاصة تمنع علاقته بالخليقة.

وتبقى العلاقة الشخصية الخاصة مبنية على:

* التبني.

* نوال مجد المسيح للحياة الأبدية.

* ميراث الملكوت الأبدي.

أرجو ألاَّ يضيع هذا التحذير في خضم المشاعر الحزينة التي نشعر بها أحياناً إزاء الغبن والظلم والاحتقار الذي نعانيه يومياً.

لم تكن الوثنية في زمن الآباء أكثر رحمة من حركات التطرف، ومع ذلك لم يطوِّر الآباء بشارة الإنجيل لكي تصبح قاصرة على المؤمنين فقط.

لقد رفع المسيح حكم الموت عن الجنس البشري، ولذلك نالت البشرية فيه القيامة، وهو ما سوف ندرسه في دقة، هي ذات الدقة التي عرض القديس أثناسيوس للموضوع.



موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب باوي

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الثالثة

www.coptology.com

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الثالثة

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٠٩

-١-

خلق الإنسان حسب صورة الله

إذا حصرنا النصوص الخاصة بالصورة الإلهية، فهي حسب ترتيب الفصول: (٣: ٣ - ٤: ٦ - ٥: ١ - ٦: ٤ - ٧: ٤ - ١١: ٣ - ١٢: ١ - ١٣: ٢ - ١٤: الفصل كله - ٢٠: ١).

وهكذا يكون من السهل علينا تتبع شرح القديس أثناسيوس حسب ترتيب الفصول. وهذا الأسلوب يبدو الأقرب إلى طريقة الوحي.

أولاً التمييز بين الصورة، وحسب الصورة:

خُلِقَ الإنسان حسب صورة الله، وصورة الله هو الكلمة ٣: ٣. فالابن هو صورة الله الذي يعلن الآب. والبشر هم صورة الكلمة. ومفردات هذه الصورة حسب عبارات القديس أثناسيوس نفسه:

- **"شركة في قوة اللوغوس"** (٣: ٣).
- **"هي شركة تبعية الظل للنور"** (٣: ٣).
- **"وهي القدرة العاقلة"** (٣: ٣).

هذه القدرة هي سر سعادة الإنسان، وهي أيضاً سر "الحياة الحقيقية" (٣: ٣) التي تختلف عن الحياة المزيَّفة التي جاء بها الشر (٤: ٥). فالشر - تحديداً (حسب كلمات أثناسيوس) - هو: "كل ما هو شر فهو عدم" (٤: ٥). وعدمية وفناء الشر ترجع إلى أن خالقه، وهو الإنسان لا يستطيع أن يجود على ما يخلقه ويمده بالحياة والبقاء، ولذلك يفسد مع طول الزمان.

والتمييز بين الصورة، وحسب الصورة تمييز ضروري جداً لفهم أساس الخلاص نفسه؛ لأن الإنسان الذي يستمد كيانه وبقاءه من الله الكلمة ليس إلاَّ صورة للكلمة، فقد "دُعي الإنسان إلى الوجود بقوة الكلمة ومحبته للبشر" (٤: ٥)، فقد حصل على وجوده من الله الكائن بالطبيعة (٤: ٥).

إذن، الكينونة الإنسانية لا بقاء لها بدون الشركة، ولذلك عبارة القديس أثناسيوس:

"الإنسان فانٍ بطبيعته لأنه خلق من العدم" (٤: ٦).

لكن الإنسان الذي حُصِرَ وجوده بين:

- البقاء على صورة الله الكائن (٤: ٦).
- والفناء لأنه خلق من العدم (٤: ٦).

كان قادراً على أن يبقى في الشركة، وأن يفلت من الفساد الطبيعي (٥: ١)، وهي عبارة خاصة تؤكد أن ما جاء من العدم يفسد حسب الطبيعة، فلا بقاء خاص له.

ثانياً: "حسب الصورة" – كشركة في قوة الكلمة – هي أساس تألُّه الإنسان في المسيح:

ما هو المقصود بأن الله "وهبنا أيضاً بنعمة الكلمة إمكانية أن نعيش حسب الله" (٥: ١)؟

يجب أن ننتبه إلى عبارة "**نعمة الكلمة**"، فالإنسان الذي جاء من العدم إلى الوجود، لا يوجد في كيانه قدرة خاصة تمكِّنه من البقاء أو الحياة إلى الأبد بدون الله؛ لأن:

١– ما هو مخلوق له وجود يحدده الخالق، وهو حسب الصورة.

٢– ما جاء من العدم ليس له بقاء ذاتي، أو حسب اللغة السائدة ليس "واجب الوجود"، فالله وحده هو الكائن وكل مخلوق – مهما كان – يستمد كيانه من الله.

٣– الإنسان لا يملك كيانه؛ لأن ما هو مخلوق وُهِبَ "نعمة الصورة"، فإذا فَقَدَ هذه النعمة، فَقَدَ الشركة، وفقدان الشركة يعرضه لفقدان الوجود حسب الصورة.

جواب على اعتراض شائع:

١– هل يعني هذا أن الإنسان كان يجب أن يعود إلى العدم الذي جاء منه؟ والجواب – كما سنراه – هو أن الإنسان الذي سقط في قبضة الموت، كان سائراً حتماً نحو الفناء، لكن الله أبقاه في الوجود لكي يخلِّصه في يسوع المسيح.

٢– هل يعني هذا أن الإنسان خالدٌ بالطبيعة؟

بكل تأكيد لا؛ لأن الوجود نعمة، وخَلْقُ الإنسان على صورة الله هو نعمة، فهو لا يملك النعمة؛ لأن العطية مرتبطة بالشركة، وليست لبقاء ذاتي منفصل قادر على البقاء بدون الله.

إذا تذكرنا أن كل ما نملك هو نعمة من الله خالقنا، أدركنا أنه حتى الخلود أو عدم الموت ليس طبيعة، بل نعمة. والفرق بين الطبيعة والنعمة هو فرق كبير جداً يجب أن ننتبه إليه وما يترتب عليه(١).

لو كان الإنسان خالداً بالطبيعة، لَعَجز الموت عن أن يمسك بالإنسان، ولَمَا

---

(١) راجع رسالة د. وهيب قزمان بولس عن "النعمة عند أثناسيوس" – نشر مركز دراسات الآباء بالقاهرة.

صح ما تذكره كلمات التقوى الأرثوذكسية: "هذا الذي كنا ممسكين به مبيعين من قبل خطايانا" (القداس الباسيلي).

- ٢ -

الطبيعة والنعمة

أولاً: الطبيعة:

عندما ذكر القديس جيروم إن الرسالة إلى الوثنيين وتجسد الكلمة هما معاً كتاب واحد[١]، فقد كان على صواب، نظراً لأن المؤلف يتابع شرحه في تجسد الكلمة مكملاً الشرح السابق في الرسالة إلى الوثنيين.

ما هي طبيعة الإنسان؟

يقول المعلم الكبير:

> **"الله خالق الكون وملك الكل الذي يعلو على كل كينونة وإدراك إنساني؛ لأنه صالح وجوَّاد، خلق الجنس البشري حسب صورته الذاتي، كلمته مخلصنا يسوع المسيح".** (الرسالة إلى الوثنيين ١: ٥ ص ٧).

فما هي الصورة؟

> **"وجعله (الجنس البشري) قادراً على إدراك وفهم الوجود الحقيقي بوساطة التشبُّه (بالله) وأعطاه معرفة وتصوُّر أبديته"** (الرسالة إلى الوثنيين ١: ٥ ص ٧).

فالصورة هي القدرات العقلية.

---

(١) مشاهير الرجال فقرة ٨٧.

لكن هذه الطبيعة لها حدود، ولذلك يقول أثناسيوس:
"إذا حفظ الإنسان أو أبقى على مثال الله، فهو لن يبتعد عن إدراكه لله، ولن يفارق شركة القديسين". (الرسالة إلى الوثنيين ١: ١٠ ص ٧).

الطبيعة يجب أن تبقى في الشركة، وفي عبارة محددة يقول أثناسيوس:
"إذا حفظ نعمة مَن أعطاه وأيضاً القوة الخاصة التي أعطاها له كلمة الآب، فإنه يفرح ويخاطب الله ويحيا الحياة الكاملة والمباركة حقاً والخالدة" (الرسالة إلى الوثنيين ١: ١٠ ص ٧).

الطبيعة حرة، ولذلك يقول أثناسيوس إن الله عندما خلق الإنسان كان يعرف أنه يستطيع بحريته أن يميل نحو الشر، لذلك دعَّم الوجود الإنسان:
أولاً: بالصورة.
ثانياً: بالوصية.
ثالثاً: بالفردوس أو الجنة (تجسد الكلمة ٣: ٣، ٤).
هنا ندرك أن ميل الإنسان هو بسبب عطية الحرية، وهي عطية لها جذر في الله نفسه؛ لأن الله حرٌ، وحرية الله ليست مثل حرية الإنسان تجعله يميل إلى ما هو ضد طبيعته وضد صلاحه. ولكن لأن الله صالح وجوَّاد، فهو لا يحفظ الإنسان في الشركة "قسراً" وبلا حرية؛ لأن انتفاء الحرية يعني انعدام المحبة.

الطبيعة تبقى إذا حفظت النعمة. وإذا كانت النعمة حسب تعبير أثناسيوس "أضيفت" إلى الإنسان، فإن الطبيعة تبقى حرة إذا ظلَّت في الشركة. من هذه النقطة بالذات ندرك أن النعمة التي أضيفت إلى الطبيعة لا تصبح من الطبيعة، بل هي باقية إذا

بقيت الشركة.

مميزات خاصة بالطبيعة:

أولاً: هي على مثال الله، أو حسب صورته ومثاله (تكوين ١: ٢١). والمثال هو تشبُّهٌ بالله، ولكن هذا التشبُّه ليس من القدرة ولا هو بالإرادة المخلوقة من العدم، بل هو بواسطة نعمة الصورة.

فالمثال نعمة لا يملكها الإنسان بالطبيعة، بل هبة أخذها بالنعمة.

ثانياً: نالت الإنسانية "نصيباً" في قوة الكلمة، وقوة الكلمة ليست قوة مخلوقة؛ لأن الكلمة خالق الكل ليس مخلوقاً. وهنا تصبح القوة الإلهية في الإنسان هي عطية.

"حسب الطبيعة الإنسان ميت

το κατα φυσιν ανθρωποφ θνητοφ
Men is by nature mortal

لأن هذه العبارة تعني بالضبط "حسب الطبيعة الإنسان فاسد"، والسبب كما هو واضح من سياق الشرح نفسه؛ لأنه خُلِقَ من العدم (تجسد الكلمة ٤: ٦).

ثالثاً: لكن الخلق من العدم لا يمنع الإنسان عن شيء؛ لأن تحول الإنسان من العدم إلى الوجود جاء بواسطة محبة الله للبشر، وكان على الإنسان – كما يقول أثناسيوس نفسه – أن يكسر أو يغلب مصدر وجوده، أي العدم، إذا أبقى الله في معرفته أي في التأمل والخطاب الذي هو جزء من حياة الشركة (تجسد الكلمة ٤: ٦).

رابعاً: الفناء أو الموت هو الوجه الآخر للوجود الإنساني، إذا ضاعت الشركة وتحوَّل الإنسان عن الله خالقه، وحصر حياته وفكره في كيانه المخلوق من العدم.

وقد قدم أثناسيوس في الرسالة إلى الوثنيين عرضاً موجزاً لتحوُّل الإنسان على النحو التالي:

١– تحوَّل عن إدراك الوجود الحقيقي.

٢– بدأ يحدد كيانه حسب صورته هو، وليس حسب صورة الله.

٣– سجن الإنسان نفسه فيما هو أقرب إليه، وهو الجسد وشهوات الجسد.

٤– سقطت النفس العاقلة في فوضى ***disorder***

٥– تراجع الإنسان عن استخدام القوة التي أخذها من الله في البدء.

ولعل أهم فقرة في هذا الفصل بالذات هي التي تتحدث عن تحول الإنسان نحو تحديد كيانه ووجوده ليكون حسب الصورة والمثال الذي اختاره، وهو – حسب كلمات أثناسيوس – التحوُّل إلى الاتجاه المضاد تماماً، وهو الذي ساق الإنسان نحو شهوات متعارضة ومتباينة.

٦– سقط الإنسان فريسة للخوف والفزع، لكن أخطر ما في هذا التحول ليس الاتجاه المضاد، بل "θνητα φρονειν" – ذهنيات (من ذهن أو إدراك) الموت" (الرسالة إلى الوثنيين ١: ٣ و٢٨ ص ١٠)، فلقد دخل فكر ومحتوى الموت ودخل معه "الخوف من الموت" (المرجع السابق ١: ٣ – ٣٠ ص ١٠).

ثانياً: النعمة:

هي قبل أي شيء آخر، هي الوجود حسب الصورة الإلهية.

ونجد عند أثناسيوس نفسه شرحاً وافياً للوجود الإنساني حسب صورة الله، هكذا:

أولاً: شركة في الكلمة.

"لكنهم بنعمة اشتراكهم في الكلمة" (تجسد الكلمة ٥: ١).

هذه الشركة في الكلمة هي أن الخليقة:

"خلقت عاقلة، وكان لها – قبل السقوط شركة في الكلمة" (٦:

٤)، **هذه "هي نعمة مماثلة لصورة الله"** (٧: ٤).

وكلمة "شركة" باللغة العربية أضعف بكثير من الكلمة اليونانية؛ لأن الفعل اليوناني يعني "الحصول على، ونوال ما هو غير موجود"، فالإنسان يشترك فيما لا يملك، لأنه كيف يشترك فيما يملك.

الشركة حسب الخلق على صورة الله هي حسب كلمات أثناسيوس نفسه: **"جعل (الله) لهم نصيباً في صورته الذاتي"** (١١: ٣).

ثانياً: هذه الشركة هي معرفة الآب من خلال الكلمة وبواسطة كيان الإنسان نفسه الذي صُوِّرَ على مثال الابن؛ لكي – بتأمل كيانه – لا يقع الإنسان في ازدواجية المعرفة، أي تصبح معرفته بنفسه مثل مرآة يرى فيها الإنسانُ الابنَ الكلمة، إذ تعكس هذه المرآة حقيقة الوجود حسب الشركة(١).

ومن باب المعرفة دخل إغراء الشيطان. ومشورة الشيطان كلمة سهلة في اللغة العربية، فهي "رأي أو فكرة، مجرد مشورة"، ولكن الكلمة اليونانية συμβουλια هي مكونة من مقطعين συμ و βουλια أي "الرؤية المشتركة"، فهي لم تكن مجرد فكرة. ولذلك، فحتى الكلمة الإنجليزية ***council*** لا تعطي المعنى الدقيق.

لقد شارك الإنسانُ الشيطانَ ذات الفكرة (تجسد الكلمة ٥: ١).

ولذلك أعاد الإنسان تحديد كيانه وجعله صورةً لذاته، ثم أعاد تحديد الله نفسه، فسقط في الوثنية على النحو الذي شرحه القديس أثناسيوس في فصل ٢ من الرسالة إلى الوثنيين، ولم تكن الوثنية سوى تحديد ***Definition*** لله نفسه، أي

---

(١) النفس – كمرآة – تقليد قديم سبق القديس أثناسيوس نفسه. (راجع ثيوفيلوس الأنطاكي ٢: ١ في Ad Auto locum والرسالة إلى الوثنيين للقديس أثناسيوس فصل ٨: ١٣ ص ٢٠).

ορους جاء من كيان فَقَدَ المعرفة الحقيقية، ودخلته:

١– معرفة مزيفة.

٢– معرفة مزدوجة لكيانٍ صار حسب صورة الإنسان، أي بدون الصورة الإلهية.

٣– معرفة متنوعة متنافرة خلقت الفوضى كما سبق وذكرنا.

٤– معرفة يقوم فيها الخوف من الموت بدور مدمر، إذ كما يقول أثناسيوس نفسه حوَّل الإنسان إلى بحثٍ دائبٍ عن عدم الموت أو الخلود، ولكن بالقتل والزنا والتهور في السلوك (فصل ٩ من الرسالة إلى الوثنيين، ثم راجع فصل ١١ كله).

ثالثاً: الطبيعة والنعمة في الفصل ١٤ من كتاب تجسد الكلمة

لم تتحول النعمة إلى طبيعة، وإنما ظلت مرتبطة بالشركة، بقيت من الشركة. أنها حسب ما نراه في الفصل ١٢ مماثلة الصورة الإلهية، أي الكلمة (١٢: ١)، وهي القدرات العقلية (١٣: ١ – ٢). وفي الفصل الرابع عشر يقدم القديس أثناسيوس التشبيه الذي يشرح العلاقة بين الطبيعة والنعمة.

١– صورة رُسِمَتْ على قماشٍ، ثم تلطخت (١٤: ١).

٢– اختفاء ملامحها (١٤: ١).

لم يرفض صاحب الصورة اللوحة أو الأيقونة المرسومة، بل

أ– جاء لكي يجدد الرسم مرة أخرى.

ب– جاء "لكي يجدد الإنسان الذي خُلِقَ سابقاً على صورته" (١٤: ٢).

وتجديد الصورة يفتح لنا باب فهم العلاقة بين الطبيعة والنعمة، فالإنسان الذي خُلِقَ على صورة الله هو في حقيقة الأمر مخلوق.

في الفصل ٣٥ من الرسالة إلى الوثنيين، الحد الفاصل بين الله والإنسان هو أن

الإنسان مخلوق، والله غير مخلوق (٣٥: ١ — ١٠ ص ٩٤). والله لن يترك طبيعته غير المرئية (٣٥: ١٥ ص ٩٦). أمَّا الإنسان المخلوق فهو *In a state of flux* (الرسالة إلى الوثنيين ٤١: ١٥–٢٠ ص ١١٤).

ولكن حتى لا تعود الطبائع المخلوقة كلها إلى العدم، يثبِّت الكلمة وينير كل المخلوقات لكي تبقى ثابتة؛ لأنها تشترك في الكلمة الذي من الآب والذي يُعين كل مخلوق لكي يبقى موجوداً، وحتى لا تعاني الخليقة وتعود إلى عدم الوجود إذا لم يكن الكلمة يعطي لها حماية ودعماً لكي تبقى (كولوسي ١: ١٥ — ١٨، والرسالة إلى الوثنيين فصل ٤١: ٢٥ — ٣٠ ص ١١٤).

هذا يؤكد لنا معنى عبارة "الفساد الطبيعي"، أي عدم قدرة الإنسان على أن يبقى بقدراته موجوداً وحياً إلى الأبد. والفساد الطبيعي = الفناء الطبيعي = الموت (راجع الفصل ٤ كله من تجسد الكلمة لا سيما ٤: ٦)، ونلفت النظر إلى هذه العبارات تحديداً:

- **"تعدي الوصية أعادهم إلى حالتهم الطبيعية"** (٤: ٤).

- **"حصلوا على وجودهم من الله الكائن، لذلك كان لابد أن يُحرَموا إلى الأبد من الوجود. وهذا يعني انحلالهم وبقائهم في الموت"** (٤: ٥).

- **"الإنسان ميِّت أو فانٍ بطبيعته لأنه خُلِقَ من العدم ... كان ممكناً أن يقاوم قوة الفناء الطبيعي ويبقى في عدم فناء لو أنه أبقى الله في معرفته" (سفر الحكمة ٦: ١٩)"** (تجسد الكلمة ٤: ٦).

من هذه العبارات يمكن أن نؤكد دون تردد إن ما في الطبيعة الإنسانية عائد

إلى الله نفسه، وأنه لا وجود حقيقي حي للإنسان بدون الله.

رابعاً: الطبيعة والنعمة في فصل ٤٤ في كتاب تجسد الكلمة

أولاً: يجب أن نلاحظ أنه لا يوجد فصل خاص في كل مؤلفات أثناسيوس عن الطبيعة والنعمة.

ثانياً: لا يوجد تعليم عن الطبيعة يمكن أن يقال بشكل منفصل عن النعمة وذلك:

١- لأن كل ما هو كائن، هو عائد إلى صلاح الله ومحبته للبشر.

٢- ولأن لا وجود خاص للإنسان يجعله قادراً على أن يحيا بدون الله أو بدون شركة.

إذا تأكدنا من هذا، علينا إذن أن ندقق في كلمات المعلم الكبير في فصل ٤٤.

يجيب أثناسيوس على اعتراض قيل ولا يزال يقال حتى اليوم، وهو حسبما سجَّله المعلم الكبير:

> **"إن الله لو أراد أن يرد البشرية ويخلصها، كان يمكنه أن يفعل هذا بنطقٍ عالٍ وبدون أن يتخذ الكلمة جسداً، أي أنه كما خلق البشر من العدم بكلمة في البدء ...."** (٤٤: ١).

لكن علينا أن نلاحظ تسلسل السرد نفسه:

١- في البدء، ما كان مطلوباً، هو مجرد نطق يحقق عمل الإرادة الإلهية، وبذلك يتم الخلق (٤٤: ٢).

٢- فكان أن جاءت الخليقة والإنسان من العدم إلى الوجود. فقد حدث الخلق وأصبح الإنسان الموجود أو الكائن هو المحتاج إلى علاج "علاج أو شفاء ما هو

موجود" (٤٤: ٢).

الوجود إذن هو ما يجب أن يُعالج؛ لأن ما هو موجود يستدعي أن "يظهر الطبيب والمخلص فيما هو موجود، أي الإنسان" (٤٤: ٣)، ولذلك تجسَّد.

٣– ولكن التجسُّد لم يكن مجرد اتخاذ جسد، بل "أن الفساد الذي حدث لم يكن فساداً خارج الجسد، بل كان ملاصقاً به" (٤٤: ٤).

ولكي يتم شفاء الإنسان:

أ– كان الأمر يحتاج إلى أن تلتصق به الحياة بدلاً من الفساد (٤٤: ٤).

فالخلاص جرعة حياة مِن الذي هو "الحياة".

ب– "حتى كما صار الموت في الجسد، تصير الحياة في الجسد أي في داخله" (٤٤: ٤).

ج– "صار الموت من نسيج الجسد" (٤: ٥).

ولكي يتم تحول وشفاء الإنسان من الموت إلى الحياة:

١– كان من اللازم أن تصير الحياة داخل نسيج الجسد أيضاً، حتى إذا لبس الجسد الحياة بدل الموت، فإنه يطرح عنه الفساد.

٢– جاء الكلمة وهزم الموت، ولكن كان "الفساد سيظل باقياً في الجسد" (٤: ٥)، فلابد من تحول الجسد.

٣– كان من الصواب أن يلبس المخلص جسداً؛ لكي إذا اتحد الجسد "بالحياة" لا يعود يبقى في الموت كمائت، بل إذ قد لبس عدم الموت (طبيعة الله الكلمة)، فإنه يقوم ثانيةً ويظل غير مائت (نعمة القيامة).

إن ما حدث للطبيعة الإنسانية هو أنها:

١– مثل القش قابلة للاحتراق، أي الموت، حتى إن ظل القش بعيداً عن النار "لم يحترق يظل مجرد قش قابلاً للاحتراق بالنار" (٤٤: ٧).

٢– ولكن هذه الطبيعة القابلة للاحتراق، أي الموت، قد لبست الحياة وحقق الكلمة الحياة للإنسانية ليس فقط بإبادة الموت، بل بإبادة الفساد (٤٤: ٨).

هكذا يجب علينا أن ندقق النظر في العبارة το κατα φυσιν (الفصول ٤، ٥، ٧، ٢٨) لأن هذه العبارة هي بالضبط κατα φυσιν φθορα (راجع فصل ٣٠)، لكن ما يحفظ الإنسان هو البقاء في الصورة.



موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب باوي

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الرابعة

Coptology

Ϩⲁⲛⲱϣ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الرابعة

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٠٩

مقدمة

هل كانت خطية آدم هي اشتهاء الإلوهة،
وهل كانت هي ذات سقطة الشيطان؟

لم أكن أريد أن أتعرض لموضوع التألُّه مرةً أخرى؛ خصوصاً بعد أن أصدرنا دراستنا عن الشركة في الطبيعة الإلهية[١] فنحن نعتقد أنها أوفت الموضوع حقه. ولكن، ولأن موضوع اشتهاء الإلوهة هذا، وإن كان يرتبط — في ذهن القائلين به - بشكل أو بآخر بموضوع الشركة في الطبيعة الإلهية، إلاَّ أننا نشير من البداية إلى أنه موضوعٌ غير معروف بالمرة في كتابات الآباء، فلم يقل أحدٌ منهم إن خطية آدم كانت هي اشتهاء الإلوهة. وعلى ذلك فقد ألزمنا ذلك التعليم الخطير الذي قدَّمه الأنبا شنودة الثالث في مجلة الكرازة، ثم أعاد نشره في كتابه "بدع حديثة"[٢]، ألزمنا أن نجيب على هذا السؤال؛ لأن ما قيل يُعد إدعاء يهدم أحد جوانب الخلاص، وهو القيامة من الأموات، أي عدم الموت، أو التألُّه، وهو ما حدث لناسوت الرب يسوع نفسه. فإذا كان التألُّه خطية، وكان اشتهاء الإلوهة هو سقطة الشيطان نفسه، ومن بعده آدم، فهل يعني ذلك أنه تمَّت شيطنة المسيح نفسه؟ وبالتالي هل يمكن أن نعتبر أن الرب يسوع جاء لكي يجعلنا "شياطين"، وبالتالي نبقى في حالة السقوط إلى الأبد؟!!!.

(١) هذه الدراسة منشورة على موقع www.coptology.com

(٢) راجع كتاب بدع حديثة ص ١٤٤ وما بعدها حيث يقول تحت عنوان بنفس شهوة الألوهية أغرى الشيطان الإنسان الأول: "وهكذا إذ اشتهى الإنسان مجد الألوهية — ولو في صفة واحدة منها — فلذلك فقد مجد البشرية التي كانت له".

– ١ –

ما هو العنصر الإلهي في الإنسان؟

لا يمكن بأي حال من الأحوال لأي أحدٍ مهما كان أن يدَّعي علينا بأننا قلنا إن تأليه الإنسان يعني أن يصبح الإنسانُ إلهاً بالطبيعة(١)؛ لأننا لم ننكر في أي مرة، وفي كل ما قيل، وما كُتب، بل أكدنا أن المخلوق يبقى مخلوقاً. فهو "آتٍ من العدم"، وهي عبارة ذات دلالة هامة تؤكد أنه لا يملك وجوداً خاصاً به، قادراً على البقاء الأبدي.

لقد كررنا مراراً عبارة القديس أثناسيوس في تجسد الكلمة: "**فالإنسانُ فانٍ بطبيعته لأنه خُلِقَ من العدم**" (تجسد الكلمة ٤: ٦)، وهنا علينا أن نتوقف أمام عدة ملاحظات هامة:

١– إن البقاء ليس قدرةً إنسانيةً؛ لأن المقصود بالبقاء هنا هو البقاء الأبدي في حياة لا تعرف الموت، وهو – تحديداً – التحوُّل إلى ما جاء به الرب يسوع المسيح. وخلف هذا البقاء توجد حقيقة الكيان الإنساني الذي يقف بين الموت والحياة.

٢– عندما تعرَّض القديس أثناسيوس لموضوع حرية الاختيار التي أعطاها الله للإنسان، نجد أنه عرض للأمر هكذا: "إن الله رأى عدم قدرة الإنسان أن يبقى دائماً في الحالة التي خُلق فيها، أعطاه نعمةً إضافيةً"، وهي الصورة الإلهية (٣: ٣). ولأن "إرادة البشر يمكن أن تميل إلى أحد الاتجاهين – الخير أو الشر – سبق فدعَّم النعمة المعطاة لهم بوصيةٍ، ومكان الفردوس (وجودهم)" (٣: ٤).

---

(١) راجع ما جاء في بدع حديثة ص ١٤٥ تحت عنوان تأليه الإنسان معناه أن يتصف بالصفات الإلهية، حيث يقول الأنبا شنودة: "أن يصير الإنسان إلهاً يعني أنه يصير غير محدود، مالئ السموات والأرض....إلخ".

وهنا، لو افترضنا جدلاً أن خطيئة الإنسان كانت هي اشتهاء الإلوهة، لكان الحديث عن حرية الاختيار وإمكانية تحول الإنسان من الخير إلى الشر هو المجال المناسب تماماً الذي يمكن للقديس أثناسيوس أن يذكر فيه أن سقوط الإنسان كان هو اشتهاء الإلوهة، لكن القديس أثناسيوس الذي درس التسليم الآبائي جيداً، لا يعرف اجتهاد الأنبا شنودة الثالث — فليس لدينا في تراثنا الشرقي الأرثوذكسي مَن قال إن السقوط كان اشتهاء الإلوهة، والسبب في ذلك هو أن الآباء جميعاً – حتى في الغرب – لم ينكروا أن الإنسان مخلوقٌ على "صورة الله ومثاله" (تك ١: ٢٦).

ومن هنا يتضح لنا أن المدخل الصحيح لفهم مسألة سقوط الإنسان، هو الوعي الصحيح بمعنى خلق الإنسان على صورة الله ومثاله، وذلك لما بين الموضوعين من ارتباط عضوي لا يسمح بفهم أي من الموضوعين فهماً صحيحاً إذا شاب فهم أحدهما خللٌ ما.

وهكذا يمكننا أن نكتشف حجم المشكلة التي تترتب على محاولة تحويل صورة الله في الإنسان إلى مجرد صورة "للبر والقداسة"، وهي المحاولة التي كرسها الأنبا شنودة الثالث[(١)]، سيراً على خطى يوحنا كالفن ولوثر وكل قادة حركة الإصلاح، ثم دعاة حركة النهضة البروتستانتية في القرن الــ ١٨، فهذه المحاولة تجعل من الصورة الإلهية مجرد مجموعة من الصفات الأخلاقية التي يجب أن يتحلى بها الإنسان ليكون على صورة الله في "السلوك". لكن هذا الادعاء لا علاقة له بالمرة بلاهوت الكنيسة الأرثوذكسية؛ لأن البر والقداسة هما صفات الله نفسه، هذه الصفات توهب لنا في المسيح لأنه هو ذاته "بر الله".

---

(١) يقول الأنبا شنودة في كتابه بدع حديثة ص ١٥٣: "إن الله عندما خلقنا على صورته كشبهه، لم يخلقنا في طبيعته ...إنما خلقنا الله على صورته في الطهارة، وفي السلطان، وفي حرية الإرادة، وفي العقل وما أشبه".

ولعلنا نلاحظ أن "القداسة" عند الإنجيليين بالذات هي "عدم الخطية"، ولكن عند كل الآباء، القداسة هي شركة في قداسة الله نفسه. والقداسة هي صفة خاصة بالله "القدوس"، أي الفريد الذي لا مثيل له(١). لذلك يتعذر علينا أن نرى في تسبحة السمائيين في أشعياء ٦: ١ وما بعده: "قدوس، قدوس، قدوس"، أن الملائكة يقولون: الذي بلا خطية، الذي بلا خطية ... فهذا ليس تمجيداً لله ولا إكراماً له، بل وليس هذا تسبيحاً من حيث الأصل.

فالتقديس هو عطية الله لنا في ابنه، وهي العطية التي ردت الإنسان إلى صورة المسيح نفسه، القدوس الذي بلا خطية؛ لأننا نشترك في قداسة الله (عب ١٢: ١٠). فقد جاء الرب يسوع كرأس الخليقة الجديدة التي وُهبت حياة أبدية لا علاقة لها بالسلوك الأخلاقي، بل تعطى من الآب في ابنه يسوع المسيح (١ يو ١: ١ – ٣).

٣– إذا دققنا النظر في عبارات القديس أثناسيوس كما وردت في الأصل، بعيداً عن براهين وأدلة الحقد وغليان العواطف الذي يحاول طمس التعليم الكتابي والآبائي نفسه، لوجب علينا أن نتوقف أمام التعبيرات الآتية ودراستها بكل دقة ممكنة:

– أعطاهم شركة في قوة كلمته (٣: ٣)

– الإنسانُ فانٍ بطبيعته لأنه خلق من العدم، إلاَّ أنه بسبب خلقته على صورة الله الكائن (٤: ٦)،

– كان ممكناً أن يعيش مثل الله (٤: ٦).

ως Θεος as God

---

(١) إن كلمة قدوس في العبرية هي قدوش، وهي تعني التعالي والانفصال والتخصيص، وبالتالي فالقداسة هي ما يميز الله ويخصصه ويفصله ويجعله أعلى وأسمى من كل المخلوقات، ولذلك فكلمة قدوس لا تعني صفة بل شخصاً، ولذلك يقول الله في سفر أشعياء: "أنا الرب إلهك قدوس إسرائيل مخلصك" (أش ٤٣: ٣). فالقداسة هي ذات الطبيعة الإلهية، ولما كان الآب هو الآب القدوس (يو ١٠: ١٤)، فإننا عندما نولد منه (يو ١: ١٢)، نصبح الأبناء القديسين الذين على صورته ومثاله.

– الله لم يكتف بأن يخلقنا من العدم، ولكنه وهبنا أيضاً بنعمة اللوغوس أن نحيا حياة إلهية" (٥: ١).

κατα Θεον ξην ημιν to live divine life

فإذا كان الإنسان قد وُهِبَ أن يحيا حياةً إلهيةً، وكان ممكنا أن يعيش مثل الله، فأين إذن اشتهاء الإلوهة؟!!!

ويبدو بشكل أوضح من العبارة التالية:

– إن "الكلمة سكن فيهم" (٥: ٢).

ويؤيد القديس أثناسيوس ذلك بكلمات سفر الحكمة "الله خلق الإنسان لعدم فساد وجعله على صورة أبديته" (٥: ٢). ويؤكد أثناسيوس في (٥: ١) شركة الإنسانية في اللوغوس بقوله: "لكنهم بنعمة اشتراكهم في الكلمة"، فكيف يشترك الإنسان في اللوغوس دون أن يكون ذلك شركة في الطبيعة الإلهية؟!!

وما أكده القديس أثناسيوس من اشتراك الإنسان في اللوغوس في الفصل الخامس، عاد وشدد عليه في الفصل الحادي عشر من كتاب تجسد الكلمة، الأمر الذي يعني أن ما قاله المعلم السكندري ليس زلة لسان، وهكذا نجده يشدد على مسألتين:

الأولى: هي "لأن (الله) صالح في ذاته، فقد جعل لهم (للإنسانية) نصيباً في صورته الذاتي (الذي هو) ربنا يسوع المسيح" (١١: ٣).

الثانية: وهي – حسبما اعتاد القديس أثناسيوس – إن الخلق على الصورة نعمة: "بسبب تلك النعمة – فإنهم عندما يرون تلك الصورة، أي كلمة الله يمكنهم عن طريقه أن يصلوا إلى معرفة الآب" (١١: ٣).

النعمةُ إذن هي صورة الابن، وهي شركةٌ في الابن، وهي مصدر معرفة الإنسان بالله الآب. الصورة هي عطية نمو "نعمة الوجود حسب الصورة كانت كافية لأن تجعلنا نعرف الله الكلمة، ونعرف الآب بواسطته" (١٢: ١). الصورة هي أن

يكون الإنسان عاقلاً، أي لديه الحس والإدراك الذي يمكِّنه من معرفة الله، لا أن يعيش كالحيوانات غير العاقلة (١٣: ١ – ٢).

وهكذا يؤكد القديس أثناسيوس أن اشتراك الإنسان في اللوغوس، وسكنى الكلمة في الإنسان هو أحد عناصر الخلق الأساسية على صورة الله ومثاله.

الخلق على الصورة الإلهية استدعى تجسد الكلمة:

تفشل حركات الإرساليات، والبروتستانتية – بشكل خاص – في فهم أو استيعاب حاجتنا إلى الإله المخلص، وإن كنا سنعود إلى هذه النقطة بالذات في المحاضرة الخامسة، لكن يجب أن نقف أمام عبارة معلمنا الكبير:

"كان من اللائق أن يأخذ الكلمةُ جسداً قابلاً للموت حتى يمكن أن يبيد الموت في جسده ويجدد خلقة البشر الذين خُلقوا على صورة (الله)" (١٣: ٩).

وأيضاً:

"أتى إلى عالمنا كلي القداسة ابن الآب، إذ هو صورة الآب، لكي يجدد الإنسان الذي خُلق سابقاً على صورته .." (١٤: ١).

والمقصود بالتجديد هنا هو تجديد كيان الإنسان، ورد الصورة التي فسدت إلى ما كانت عليه، أي "إعادة ميلاد النفس وتجديد خلقتها بحسب الصورة" (١٤: ٢).

ويعيد المعلم السكندري نفس الشرح مؤكداً على أن التجديد هو تحولٌ في كيان الإنسان، هو تجديد طبيعة، لا مجرد تغيير أخلاقي:

" لم يكن ممكناً أن يحوِّل الفاسد إلى عدم فساد إلاَّ المخلص نفسه الذي خلق منذ البدء كل شيء من العدم" (٢٠: ١).

فالقدرة الخالقة للرب هي القوة التي تحول الفاسد، وبالتالي فهي ليست "دفع الدين" ثمناً للآب بالمعنى السائد في العصر الوسيط، أو إرضاء العدل الإلهي. هذه

مفاهيم لا وجود لها في الفكر المسيحي شرقاً وغرباً قبل العصر الوسيط[1].

ومن ثمَّ

"لم يكن ممكناً أن يعيد خلق البشر ليكونوا على صورة الله إلاَّ الذي هو صورة الآب" (٢٠: ١)؛ لأن إلوهية الكلمة لا تتجلى فقط في ردّ الصورة، بل وفي تغيير الطبيعة أيضاً، وبالتالي: "لم يكن ممكناً أن يجعل الإنسان المائت غير مائت إلاَّ ربنا يسوع المسيح الذي هو الحياة ذاتها" (٢٠: ١).

ويتجلى ذلك بشكل أوفر في التشبيه الذي يقدِّمه أثناسيوس في فصل ١٤ وهو جديرٌ جداً بالانتباه؛ لأن التحول الكياني لا يتم بالإيمان وحده - كما يشاع في أوساط حركات النهضة الإنجيلية المعاصرة التي تمتد جذورها إلى نهضة القرن ١٨ - ١٩ - وإنما هو بنقل ملامح المسيح نفسه للإنسان، هو تجديدٌ للطبيعة:

"لو كانت هناك صورة لشخص مرسومة على قماش مثبَّت على لوحة خشب، وتلطخت الصورة من الخارج بالأقذار. مما أدى إلى اختفاء ملامحها، ففي هذه الحالة لا بُد من حضور صاحب الصورة نفسه ثانيةً لكي يمكن إعادة تجديد الصورة على نفس قماش اللوحة ... على هذا النحو، فقد أتى إلى عالمنا كلي القداسة ابن الآب؛ لكي يجدد الإنسان الذي خُلِقَ مرةً على صورته ويخلص ما قد هلك" (١٤: ١ - ٢).

على أننا ننبه إلى أننا لا نستطيع أن نستوعب التعليم الرسولي — الآبائي إذا حصرنا الاهتمام كله في تجسد الكلمة وحده، فهناك ثلاثة موضوعات مرتبطة لا يمكن

---

(1) لا يعرف فكر العصر الوسيط - الذي شكَّل عناصر فكر الأنبا شنودة الثالث - تجديد الطبيعة الذي شرحه القديس أثناسيوس، وإنما يعني به مجرد التغيير الأخلاقي، ولذلك فحسب الأدب الفلكلوري الشائع عندما يسأل أحدهم أحداً:"اتجددت يا أخ"؟ يكون المقصود هو: هل آمنت بالمسيح، وليس التجديد بمعنى تغيير الكيان طبقاً لما شرحه معلمنا الكبير. وما يُقال عن التجديد، يُقال أيضاً عن التقديس.

فصلها عن بعضها:

الأول: هو الصورة ومكونات هذه الصورة.

الثاني: رد وتجديد الصورة للإنسان.

الثالث: ما عمله المسيح يسوع الكلمة لأجلنا.

ذلك أن الصورة، أي الإنسان، ليست إلاَّ صورة مخلوقة من العدم، ولكنها كُوِّنت من "لا شيء" لتكون:

١– لها كيان ووجود مماثل لكيان الله نفسه.

٢– إدراك أو معرفة تجعل الإنسان قادراً على تأمل الآب (ليس بالمعنى المعاصر في العظات الشعبية)، بل بمعنى رؤية الآب بواسطة الابن، حيث اشترك الإنسان في قوة الكلمة أو الابن، شركة تجعل الإنسان مثل ظل الكلمة يتبعه دائماً.

٣– لها حياة إلهية، وقد شرحَ القديس أثناسيوس هذا الموضوع في إيجاز في تجسد الكلمة، بعد أن كان قد شرحه بتفصيل أوفى في الرسالة إلى الوثنيين. (إعادة ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية هو المشروع الجديد الذي ينتظر د. جوزيف فلتس).

وإذا عدنا إلى الفصل الثاني من الرسالة إلى الوثنيين وقرأنا بدقة هذه العبارات لأدركنا أن الجانب الإلهي في الحياة الإنسانية يكمن في الحياة الإدراكية أو العقلية (ليس بالمعنى المعاصر) بل بمعنى الرؤيا الإنسانية لله بواسطة اللوغوس، حيث يقول أثناسيوس:

"جعل الإنسان مدركاً وعارفاً للوجود الحقيقي بواسطة التشبُّه به (الكلمة) وأعطاه معرفةً محددةً بأبديته إذا استمر كائناً حسب المثال، وأن لا يترك بالمرة معرفته بالله أو شركة القديسين" (٢: ٥ – ١٠)[١]. ويحدد أثناسيوس هذه المعرفة بأنها:

"القوة العاقلة الخاصة التي منحها له الكلمة ابن الآب" (المرجع السابق).

---

(١) راجع الفقرة الثانية من الفصل الثاني في الترجمة العربية التي أنجزها القمص مرقس داود للرسالة إلى الوثنيين.

فقد وُهِبَ الإنسان "أن يعرف وأن يرى الآب في الكلمة ابن الآب ويفرح بتأمله (الثاؤريا) ويتجدد بالشوق للكلمة" (المرجع السابق)، ويسند المعلم السكندري هذا بقول الرب نفسه: "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (متى ٥: ٨).

فالإنسانُ كان قادراً على أن يسمو برؤية تدبير و"عناية الله" لكي يرى الأمور السمائية التي تعلو على العالم أو الكون، وهي العبارة التي نراها في الكتابات النسكية Θεια Θεωριας وهي المعرفة التي يقول عنها القداس الغريغوري: "أعطيتني علم معرفتك"، أي الأمور اللاهوتية، أو الثاؤريا.

تلك هي الحياة الإنسانية التي يكمن جانبها الإلهي في الحياة العقلية، أي في الإدراك والحس الذي يأتي من معرفة الإنسان بالكلمة وبواسطة "شركة الإنسان في قوة الكلمة".

الصورة إذن هي وجودٌ، أو كينونة على، أو حسب صورة الله الكائن، وفي ذلك يقول أثناسيوس: "حصل البشر على وجودهم من الله الكائن" (تجسد الكلمة ٤: ٥). هذه الكينونة تجعل الإنسانَ قادراً على أن يقاوم – بفضل عطية ونعمة الصورة – العودة إلى العدم أو "الفناء الطبيعي ويبقى في عدم فناء" (٤: ٦)، ولكن هذه المقاومة تتوقف على البقاء في الشركة حسب عبارة سفر الحكمة (٦: ١٩).

هذه هي الحياة الإلهية التي كانت ممكنة لولا سقوط آدم. ولكن حتى بعد السقوط لم يَعُد آدم إلى العدم، ليس بقوة بقاء ذاتية، بل بسبب صلاح الله – كما قال أثناسيوس نفسه: "كان من غير اللائق أن تهلك الخليقة وترجع إلى العدم بالفساد، تلك الخليقة التي خُلقت عاقلة، وكان لها شركة في الكلمة" (تجسد الكلمة ٦: ٤). وكانت غواية الشيطان لآدم تتعارض مع صلاح الله، إذ أن ذلك يعد بمثابة انتصار للشيطان.

إن تلاشي الخليقة وعودتها إلى العدم كان "غير لائق على الإطلاق"، ولذلك يُعد الفصل السادس في كتاب تجسد الكلمة أعظم ما كُتب عن الصلاح الإلهي، فهذا

الفصل لا مثيل له في أدبيات العصر الوسيط، أو في تلك الكتابات القبطية التي سقط كاتبوها تحت وطأة فكر العصر الوسيط الأوروبي.

في هذا الفصل يؤكد القديس أثناسيوس على أن كل ما حدث من غواية، وتحول من الحياة والكينونة حسب صورة الله، وكذلك سيادة الموت سيادة قانونية بسبب حكم صدر قبل السقوط، وكان بمثابة تحذير للإنسان، وفساد الصورة، وانغماس البشر في خطايا أكثر ... كل ذلك كان يتعارض مع أمرين:

أ– غاية خلق الإنسان على صورة الله.

ب– صلاح الله.

من له إذناً للسمع فليسمع

-٢-

خطورة التعليم بأن السقوط كان هو اشتهاء الإلوهة

لم نسمع و لم نقرأ أن السقوط كان هو "شهوة الإلوهة" على النحو الذي ذكره الأنبا شنودة الثالث، وقد رأينا أن ذلك يبدو مستحيلاً لثلاثة أسباب رئيسية:

١- شركة الإنسان في قوة الكلمة.

٢- سكنى الكلمة في الإنسان.

٣- معرفة ورؤية الإنسان لله الآب في كلمته ربنا يسوع المسيح.

وهنا لا يوجد مجال "للتخمين" بالمرة؛ لأن هذه العناصر الثلاثة معاً لا يمكن أن تكون شيئاً غير صورة الله ومثاله، أي يسوع المسيح ابن الآب الذي خُلق الإنسان حسب صورته.

وهكذا، وبدون أي تردد نلاحظ أن الادعاء بأن شهوة الإلوهة كانت هي السقوط، يضعنا أمام أحد اختيارين كلاهما أخطر من الآخر:

١- هو ادعاءٌ ينطوي على إنكار تام لإلوهية المخلص الأقنوم الثاني.

٢- أو في أقل القليل يعني أن الإنسان لم يُخلق على صورة الكلمة.

واضحٌ إذن أن هذا الادعاء لم يجئ عن معرفة ودراسة، بل جاء نتيجة "عدم التروي" وتسلط الغضب وسيادة العداوة، والافتقار إلى عناصر التكوين العقيدي الأرثوذكسي. ولأن هذا الادعاء قد تحول إلى اتهام للآباء جميعاً، وإلى الذين خاطروا بحياتهم ومستقبلهم وأسرهم وأولادهم ودخلوا مجال الدراسات الآبائية والتاريخية، لذا فقد تعذَّر علينا أن نصمت؛ لأن المسألة هنا ليست مسألة شخصية، بل هي هدم للإيمان نفسه. ولذلك علينا أن نزيد الأمر إيضاحاً:

أولاً: إذا كان الإنسان قد نال قوةً إلهية وسكنى الكلمة، بل ورؤية الآب في الكلمة، فهو يبقى في سعادة وفرح إذا حفظ الوصية وظل كائناً حسب هذه الصورة التي هي نعمة إلهية تمكنه من الحياة "حسب الله" أو أن يحيا "حياة إلهية"، فالفرق بين التعبيرين لا يجب أن يخفي الحقيقة.

على أنه إذا كان الإنسان كائنٌ مثل الله الكائن، فهذا لا ينفي أن هناك فارقاً ضخماً وهائلاً، هو أن كينونة الإنسان نعمة، وأن حرية الاختيار عند الإنسان يمكن أن تميل للخير أو الشر، بينما الله غير ذلك على وجه الإطلاق.

ثانياً: كان الإنسان يدرك ذاته بواسطة معرفة الله مثل "**مرآة**" – وتعبير **المرآة** هو للمعلم السكندري نفسه في الرسالة إلى الوثنيين[١] – وعندما يتأمل ذاته، يرى في ذاته الابن الكلمة ويشتاق إليه وتتجدد حياته بالشوق نحو الله[٢]. فلم تكن لدى الإنسان قبل السقوط معرفة مزدوجة *Dualistic* انقسمت فيها المعرفة بين الذات والله، وإنما انقسام المعرفة وازدواجها حدث بعد السقوط، ومن هنا دخلت الفوضى وفكرة الموت والجهل بالله كخالق، وبالتالي تولَّدت الوثنية عن تلك الفوضى، وهو الموضوع الذي احتل عدداً كبيراً من فصول الرسالة إلى الوثنيين. فكيف كان يمكن للإنسان أن يشتهي الإلوهة، بينما هو يحيا حياةً إلهيةً، وله شركة مع اللاهوت؟ هذا مستحيل، وهذا — في حد ذاته — يعد رداً كافياً على مَن يدعي أن الآباء لم يعرفوا

---

(١) يقول القديس أثناسيوس: "لأنها، أي النفس البشرية — بمضاعفات الشهوات الجسدية — أخفت **المرآة** التي فيها، والتي بها وحدها تستطيع رؤية صورة الآب" (الرسالة إلى الوثنيين ٨: ٢ الترجمة العربية). كما يقول: "لأن النفس خُلقت على صورة الله ومثاله، كما تبين الكتب الإلهية حين تقول على لسان الله "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا". لذلك أيضاً فإنها حينما تتخلص من كل أدران الخطية التي تغطيها وتستبقي فقط شبه الصورة في طهارتها فإنه إذ تستنير هذه الصورة استنارة كاملة ترى النفس يقيناً — كما في **مرآة** — صورة الآب، أي الكلمة، وبه تصل إلى فكرة الآب، الذي نعلم أن صورته هي المخلص" (المرجع السابق ٤٣: ٣).

(٢) الرسالة إلى الوثنيين، الفصل الثاني: ٢، ٣، ٤ من الترجمة العربية

موضوع التأله[1].

ثالثاً: كيف يشتهي الإنسان الإلوهة، بينما هو "شريك الكلمة"، ونال منه نعمةً وقوةً خاصة – كما سبق وذكرنا من قبل – لكي يدرك الآب نفسه، أي – حسب تعبير النسك المسيحي الأرثوذكسي – "الثاؤريا"، أي تأمل الثالوث، أو "الدهش"، وهي المعرفة التي ردها إلينا يسوع المسيح نفسه.

ولذلك، فعندما نقول إن التعليم بأن السقوط كان هو اشتهاء الإلوهة، ينطوي على عدم إيمان بإلوهية المخلص يسوع المسيح، فإننا لا نتجنى على أحد ولا نتهم أحداً جزافاً دون دليل، لذا يمكننا حصر عناصر هذا الاتهام في الآتي:

١– إن المسيح يسوع – كما رأينا – ردَّ إلينا صورة الله، ردَّ إلينا الحياة الإلهية؛ لأنه الكلمة الخالق، فلو كان تجديد الإنسان لا يشمل رد الصورة الإلهية، لما كانت لدى الله نفسه حاجة إلى أن يرسل ابنه المخلص الإلهي لكي يجدد الخليقة مرةً أخرى. بل يصبح التجديد عن طريق التعليم وتغيير السلوك ممكناً – وهو ما هو سائد عندنا الآن – وهذا هو الإنجيل المزيف الموازي للإنجيل الحقيقي ذلك الذي يؤكد أن التجديد هو نقل الحياة غير الفاسدة – الحياة عديمة الموت – الحياة الأبدية، إلى الإنسان بواسطة الفادي الله الكلمة.

٢– ولعل أفظع ما قيل بهذا الخصوص هو أن شركتنا في الطبيعة الإلهية هي مثل سقوط الشيطان وهيرودس[2] وهو ما يعني أن المسيح يسوع ابن الآب تحول إلى شيطان آخر، وهو ما ينادي به شيعة "المورمون" قائلين إن الابن له المجد هو الأخ

---

(١) يقول الأنبا شنودة الثالث في كتابه "بدع حديثة" ص ١٤٥: "محال أن أحد الآباء نادى بهذا التأله".

(٢) راجع الأنبا شنودة الثالث، بدع حديثة ص ١٤٤ حيث يقول: بنفس شهوة الإلوهة أغرى الشيطان الإنسان الأول، وفي ص ١٤٥ يقول: من خطورة التأله نذكر مأساة هيرودس الملك.

الأكبر للشيطان "لوسيفر". ونحن نربأ بالقائلين بهذا الادعاء أن يصلوا إلى هذه الدرجة من الانحدار، ولكنهم تركوا أنفسهم للغضب والجهل فأدى بهم ذلك إلى ما أدى.

٣- ومن هنا يظهر بكل وضوح أن القائلين بهذا الادعاء يؤمنون بأن الإنسان الذي يشتهي الإلوهة لم يكن على صلة بالله منذ خلقه، وأن شركته في قوة الكلمة "اللوغوس هي شركة في مخلوق، وأن سكنى الكلمة – اللوغوس هي سكنى مخلوق في مخلوق، وهو ما يعني – على أقل تقدير - الفشل في فهم وإدراك خلق الإنسان على صورة الله ومثاله، وما يعنيه هذا الخلق في الكتاب المقدس والآباء.

لقد كنا نريد أن نعفي القائلين بهذا الادعاء من هذا الاتهام، ولكنهم لم يتركوا لنا الفرصة للحوار، أو حتى للدفاع عنهم.

-٣-

الأصول الرسولية للشركة في صورة الكلمة

يقول القديس بولس الرسول عن المؤمنين:

"سبق فعرفهم

سبق فعينهم

ليكونوا مشابهين صورة εικων ابنه

ليكون هو بكراً بين إخوةٍ كثيرين" (رو ٨: ٢٩).

وحتى لا يضيع التعليم الرسولي بسبب اندفاعات عاطفية غرائزية، يضع الرسول ملامح هذا التحول إلى صورة الابن:

عيَّنهم

دعاهم

بررهم

مجدهم (رو ٨: ٣٠).

فالإنسان لا يرتقي أبداً إلى هذا بقواه مهما كانت، بل هي دعوة إلهية. ويجب أن ننتبه حتى لا تضيع منا الكلمة الرسولية الأصلية والتي تُرجِمَت إلى "مشابهين" لأن هذه الترجمة لا وجود لها في الأصل اليوناني.

وإنما الكلمة اليونانية أقوى بكثير من متاهات "الشبه" و"التشبه" وهي كلمة συμμορφους وهي مكونة من مقطعين μορφος - συμ من كلمة μορφη التي تعني شكل – قامة – ملامح – صورة مطابقة للأصل.

وهذه الكلمة نجدها في مواضع عديدة في الكتاب المقدس، فحسب السبعينية

يقول أشعياء (٤٤: ١٣) إن الإنسان يخلق الأصنام على صورته أو شكله الإنساني μορφη αδρος .

وفي التجلي تغيَّرت ملامح أو شكل الرب يسوع على الجبل μεταμορφοσαι.(مت ١٧: ٢، مر ٩: ٢).

كما أن الرب قد أخذ "شكل العبد" μορφη بينما هو حسب مقامه وطبيعته الإلهية μορφη شكل أو صورة الله (فليبي ٢: ٦ – ١١).

فما هو المقصود بالكلمة συμμορφους؟

يجيب الرسول نفسه على هذا السؤال بأنه هو ذلك التحوُّل الكبير الذي يصنعه الرب يسوع المسيح القادر على أن يُخضع كل الأشياء، ولذلك فهو سوف يغيِّر شكل جسد تواضعنا

to be conformed σγμμορφον τω σωματι

ليكون له ذات ملامح جسد مجده، وهذا هو المقصود بعبارة "ليكون على صورة جسد مجده" (فيلبي ٣: ٢١) والترجمة الإنجليزية أقوى conformed وحسب ترجمتنا القبطية المهجورة:

Ⲛϣϥⲏⲣ ⲙⲙⲟⲣϥⲏ ⲛⲧⲉ ⲡⲥⲱⲙⲁ

وهو ما جعل الترجمة الموحدة الصادرة عن دار الكتاب المقدس تقول:

"ليكونوا على **مثال** صورة ابنه" (رو ٨: ٢٩).

وفي نص فيلبي ٣: ٢١ (يجعله على صورة جسده).

واستخدمت الترجمة العربية كلمة "هيئة" (مرقس ١٦: ١٢)، وهي نفس الكلمة في (لوقا ٩: ٢٩)؛ لأن "هيئة" الرب تغيَّرت على جبل التجلي (مرقس ٩: ٢)، وهكذا يجب أن نفهم "صورة أو هيئة" العبد التي أخذها الرب عندما تجسد (فيلبي ٢: ٦ وبعدها).

والفعل اليوناني μορφοω / يُشكِّل، وهو وإن كان خاصاً بالفن إلاَّ أنه ورد

في (غلاطية ٤: ١٩) "ليتشكل أو يتكوَّن أو يتصوَّر المسيح، وهو ما لا يمكن بالمرة أن يحدث على مستوى هذه الخليقة. ولذلك فحتى الهرطقة الأريوسية لم تتجاسر – رغم شراسة قادها – على أن تدخل حلبة الصراع حول الخليقة الجديدة التي كُوِّنت من جديد في يسوع المسيح. ولكن ما نلفت إليه النظر هو أنه عندما يضاف المقطع συμ – sym إلى الكلمة يصبح واضحاً أن هذا يتم مع المسيح وبه. يؤكد هذا المقارنة بين:

آدم	المسيح
وكما لبسنا صورة الترابي	سنلبس أيضاً صورة السماوي (١كو ١٥: ٤٩)

هذه الصورة ليست صورة المخلوق، ولكنها صورة الخالق الذي تجسد لأجلنا.

الإنسان حسب الخليقة الأولى	الإنسان في المسيح
خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله	لبستم الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه .. بل المسيح الكل وفي الكل (كو ٣: ١٠ – ١١)

وإذا قرأنا بدقة (٢كو ٣: ١٨) فإننا نرى حسب التعليم الرسولي:

نحن جميعنا ناظرين مجد الرب ..

نتغير إلى تلك الصورة عينها

من مجد إلى مجد.

فلم تظل صورة الرب، صورة مخلوقة فقط، بل تحوَّلت إلى مجد اللاهوت، وظلت الطبيعة الإنسانية ممجدة في المسيح لأن تجسد الرب لم يلاشِ "إتحاد الطبيعتين".

هذا التحول نراه أيضاً في أطول نص عند رسول المسيح عن الحياة الآتية (١كو ١٥: ٣٥ - ٥٣)[١]، وهو عن تحول الطبيعة الترابية غير المفتداة. وفي الأدب المسيحي المعاصر يستخدم علماء اللاهوت - لا سيما الأرثوذكس - تعبير *Christification* أي تحول الإنسان إلى المسيح.

---

(١) "لَكِنْ يَقُولُ قَائِلٌ: «كَيْفَ يُقَامُ الأَمْوَاتُ وَبِأَيِّ جِسْمٍ يَأْتُونَ؟». يَا غَبِيُّ! الَّذِي تَزْرَعُهُ لاَ يُحْيَا إِنْ لَمْ يَمُتْ. وَالَّذِي تَزْرَعُهُ لَسْتَ تَزْرَعُ الْجِسْمَ الَّذِي سَوْفَ يَصِيرُ بَلْ حَبَّةً مُجَرَّدَةً رُبَّمَا مِنْ حِنْطَةٍ أَوْ أَحَدِ الْبَوَاقِي. وَلَكِنَّ اللهَ يُعْطِيهَا جِسْماً كَمَا أَرَادَ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْبُزُورِ جِسْمَهُ. لَيْسَ كُلُّ جَسَدٍ جَسَداً وَاحِداً بَلْ لِلنَّاسِ جَسَدٌ وَاحِدٌ وَلِلْبَهَائِمِ جَسَدٌ آخَرُ وَلِلسَّمَكِ آخَرُ وَلِلطَّيْرِ آخَرُ. وَأَجْسَامٌ سَمَاوِيَّةٌ وَأَجْسَامٌ أَرْضِيَّةٌ. لَكِنَّ مَجْدَ السَّمَاوِيَّاتِ شَيْءٌ وَمَجْدَ الأَرْضِيَّاتِ آخَرُ. مَجْدُ الشَّمْسِ شَيْءٌ وَمَجْدُ الْقَمَرِ آخَرُ وَمَجْدُ النُّجُومِ آخَرُ. لأَنَّ نَجْماً يَمْتَازُ عَنْ نَجْمٍ فِي الْمَجْدِ. هَكَذَا أَيْضاً قِيَامَةُ الأَمْوَاتِ: يُزْرَعُ فِي فَسَادٍ وَيُقَامُ فِي عَدَمِ فَسَادٍ. يُزْرَعُ فِي هَوَانٍ وَيُقَامُ فِي مَجْدٍ. يُزْرَعُ فِي ضُعْفٍ وَيُقَامُ فِي قُوَّةٍ. يُزْرَعُ جِسْماً حَيَوَانِيّاً وَيُقَامُ جِسْماً رُوحَانِيّاً. يُوجَدُ جِسْمٌ حَيَوَانِيٌّ وَيُوجَدُ جِسْمٌ رُوحَانِيٌّ. هَكَذَا مَكْتُوبٌ أَيْضاً: «صَارَ آدَمُ الإِنْسَانُ الأَوَّلُ نَفْساً حَيَّةً وَآدَمُ الأَخِيرُ رُوحاً مُحْيِياً». لَكِنْ لَيْسَ الرُّوحَانِيُّ أَوَّلاً بَلِ الْحَيَوَانِيُّ وَبَعْدَ ذَلِكَ الرُّوحَانِيُّ. الإِنْسَانُ الأَوَّلُ مِنَ الأَرْضِ تُرَابِيٌّ. الإِنْسَانُ الثَّانِي الرَّبُّ مِنَ السَّمَاءِ. كَمَا هُوَ التُّرَابِيُّ هَكَذَا التُّرَابِيُّونَ أَيْضاً وَكَمَا هُوَ السَّمَاوِيُّ هَكَذَا السَّمَاوِيُّونَ أَيْضاً. وَكَمَا لَبِسْنَا صُورَةَ التُّرَابِيِّ سَنَلْبَسُ أَيْضاً صُورَةَ السَّمَاوِيِّ. فَأَقُولُ هَذَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ: إِنَّ لَحْماً وَدَماً لاَ يَقْدِرَانِ أَنْ يَرِثَا مَلَكُوتَ اللهِ وَلاَ يَرِثُ الْفَسَادُ عَدَمَ الْفَسَادِ. هُوَذَا سِرٌّ أَقُولُهُ لَكُمْ: لاَ نَرْقُدُ كُلُّنَا وَلَكِنَّنَا كُلَّنَا نَتَغَيَّرُ. فِي لَحْظَةٍ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ عِنْدَ الْبُوقِ الأَخِيرِ. فَإِنَّهُ سَيُبَوَّقُ فَيُقَامُ الأَمْوَاتُ عَدِيمِي فَسَادٍ وَنَحْنُ نَتَغَيَّرُ. لأَنَّ هَذَا الْفَاسِدَ لاَ بُدَّ أَنْ يَلْبَسَ عَدَمَ فَسَادٍ وَهَذَا الْمَائِتَ يَلْبَسُ عَدَمَ مَوْتٍ".

– ٤ –

سقوط الشيطان

في كتابات الآباء أثناسيوس الرسولي، وأوغسطينوس

أولاً

عند القديس أثناسيوس الرسولي

أ– حسب المقالة الثالثة ضد الأريوسيين فقرة ١٧

كانت حجة الأريوسيين هي أن كلمات الرب في (يوحنا ١٧: ١١)، ثم (يو ١٧: ٢٠ – ٢٣) عن وحدة جوهر الآب والابن هي أيضاً إعلان عن البشر.

نص الأريوسيين كما ورد في الثاليا

"إن كنا نحن نصير واحداً في الآب، هكذا أيضاً يكون الابن مع الآب، وهكذا أيضاً يكون هو في الآب، فكيف يجوز لكم الاستدلال من قوله "أنا والآب واحد" و"أنا في الآب والآب فيَّ" أن الابن هو من ذات جوهر الآب ومساو له؟ هذا يستدعي أمرين:

إما أن نكون نحن أيضاً من ذات جوهر الآب.

أو أن يكون (الابن) غريباً عن الجوهر مثلما نحن أيضاً غرباء عنه".

رد القديس أثناسيوس:

"أنا لا أرى في كلامكم الباطل هذا سوى وقاحة بلا حدود وجنون شيطاني لأنهم مثل الشيطان يقولون "نصعد إلى السموات ونصير مثل العلي" (أش ١٤: ١٤).

إن ما يعطى للإنسان بالنعمة يجعله الأريوسيون مساوياً لإلوهية الواهب. لقد سمعوا أن البشر سيصيرون أبناء لله، فظنوا بذلك أنهم هم أنفسهم مساويين للابن الحقيقي بالطبيعة. وعندما يسمعون من المخلص: "لكي يكونوا واحداً كما نحن" (يوحنا ١٧: ١١)، يخدعون أنفسهم ويتوقحون لدرجة أنهم يظنون أنهم يصيرون مثل الابن في الآب والآب في الابن، غير معتبرين أن سقوط أبيهم الشيطان قد حدث بسبب هذا التخيل".

وقبل أن يُسرع الذين يخطفون الكلمات ويقطعون العبارات من سياقها، نقول لهم إن المعلم العظيم أكد أن سقوط الشيطان كان **خيالاً كاذباً** جعله يظن أنه يمكن أن يكون **مساوياً لله**. إضافةً إلى هذا، فإن القديس أثناسيوس لم يذكر أن هذا هو سقوط آدم.

يوجد فرق كبير بين النعمة والطبيعة سبق وأشرنا إليه. وهنا لم يكن سقوط الشيطان اشتهاء الإلوهة حسب إدعاء الأنبا شنودة الثالث، بل رغبة الشيطان في أن يكون مساوياً لله.

ب- حسب المقالة الثالثة ضد الأريوسيين فقرة ١٩ - ٢٠

وفي الفقرات التي تلي فقرة ١٧ من المقالة الثالثة لا يتوانى المعلم الكنسي عن تأكيد ما يلي:

* "يوجد ابنٌ واحدٌ حسب الطبيعة، وهو الابن الحقيقي الوحيد الجنس" (ضد الأريوسيين ٣: ١٩).

ولكن هذا لا يقود إلى إنكار النعمة، إذ يقول بعدها مباشرة:

* "هكذا نصير نحن أيضاً أبناء،

لكن

ليس مثله هو بالطبيعة وبالحق،

بل بحسب نعمة ذاك الذي دعانا.

ورغم أننا بشرٌ من الأرض،

مع ذلك نصير آلهةً ليس مثل الإله الحقيقي أو كلمته" (المرجع السابق ٣: ١٩).

وأيضاً:

* "نحن به نصير أبناء بالتبني وبالنعمة مشتركين في روحه (يوحنا ١: ١٢)" (المرجع السابق ٣: ١٩)[1].

وأيضاً:

" لم يقل: "لكي يكونوا واحداً كما نحن. لكي نصير كما هو، بل كما أنه هو الكلمة وهو في أبيه، هكذا نحن أيضاً نتخذ أباه مثالاً لنا".

وأيضاً:

* "فنحن طبعاً لسنا أبناء كالابن ولسنا آلهة مثله هو نفسه" (ضد الأريوسيين ٣: ٢٠)[2].

([1]) راجع الترجمة العربية التي نشرها مركز دراسات الآباء بالقاهرة في نوفمبر ١٩٩٤ ص ٤٢ – ٤٣.

([2]) المرجع السابق ص ٤٣.

ثانياً

سقوط الشيطان، والشركة في الطبيعة الإلهية عند القديس أوغسطينوس

أولاً: سقوط الشيطان

نظراً لأن الادعاء بأن سقوط آدم كان هو شهوة الإلوهة، يفتقر إلى أي أساس تاريخي، وإنما هو محض افتئات على كلمة الله، وجهل بتراث الآباء، فإننا لا يمكن أن نترك هذه النقطة بالذات دون تمحيص وتدقيق.

كان أوغسطينوس قد كتب شرحاً لسفر التكوين عنوانه: "عن سفر التكوين ودحض المانويين وشرح المعنى الدقيق لسفر التكوين".

ويقع هذا الشرح في ١٢ كتاباً. كُتب دفاعاً عن الخلق، وسقوط الشيطان، وسقوط آدم. وبدايةً ننبه إلى أنه بالرغم من استخدام القديس أوغسطينوس للكلمة اللاتينية "Litteram"، إلاَّ أنها لا تعني المعنى الحرفي، بل حسب دراسة الأب De Ludal تعني المعنى التاريخي أو الحقيقي أو الدقيق وليس المعنى الحرفي[١].

في الكتاب الحادي عشر[٢]: فصل ٣١ و٣٢ يقدم أوغسطينوس سقوط

---

(١) الكاردينال Henri De Ludal من أعلام اللاهوتيين الكاثوليك وله عدة مؤلفات نحتاج إلى ترجمتها إلى العربية وبالذات المجلدين الذين صدرا في ترجمة انجليزية بعنوان:

Medieval Exegesis: The Four senses of scripture. 1998.

وقدم له أستاذ اللاهوت في جامعة Yule في الولايات المتحدة Robert L. Wilken

(٢) الترجمة الإنجليزية الحديثة مجلد ١: ٣ أعمال القديس أوغسطينوس ص ٤٤٧ – ٤٤٩

...

الشيطان بالعودة إلى أشعياء (١٤: ١٢ – ١٥) عن "زهرة الصبح" الذي قال إنه "سيصعد إلى ما فوق السحاب وأصير مثل العلي"، فيقول أغسطينوس: "هذه الكلمات شُرِحَت بشكل عام على أنها قيلت ضد الشيطان الماثل في ملك بابل"، ثم يقتبس كلمات حزقيال (٢٨: ١٢ – ١٣)[١] ويشرح كلمات النبي على نفس المنوال، ولكن ما يهمنا هنا هو هذه الفقرات:

"منذ يوم خُلقت مع الكاروب الذي هو عرش الله، والكلمة "كاروب" تعني "المملوء بالمعرفة" وأنا جعلتك على جبل الله، أي الكنيسة (حسب النص) "وسمعتك من جبل قدسي" (مزمور ٣: ٤) وأنت تسير بين الحجارة الملتهبة (النارية) أي القديسين لأن لهم "حرارة الروح" (رو ١٢: ١١) وحجارة حية (١بط ٢: ٥٢).

ثم يقول في الفقرة ٣٣:

"إنه إمَّا أنه كان من اللحظة الأولى عند خلقه سقط بسبب الكبرياء الشريرة من السعادة التي كان يمكن أن يحتفظ بها إذا أراد، أو أن الملائكة الأقل رتبة في السعادة والفرح لأنهم يعيشون في العالم السفلي (المادي) لأن معرفتهم أقل من غيرهم من الذين يعيشون في رتبة أعلى وسقط هو مع هؤلاء بواسطة الكبرياء الشريرة..".

وهكذا يتضح لنا أن خطية الشيطان هي الكبرياء وليست اشتهاء الإلوهة. والفرق واضح بين أن تبقى القوات السمائية مستنيرة بقوة الروح القدس وثابتة في القداسة وهي إحدى صفات الله كما يقول القديس باسيليوس في الرسالة ٨: ٢. وفي

A translation of the 21st century

(١) "يَا ابْنَ آدَمَ, ارْفَعْ مَرْثَاةً عَلَى مَلِكِ صُورَ وَقُلْ لَهُ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: أَنْتَ خَاتِمُ الْكَمَال, مَلآنٌ حِكْمَةً وَكَامِلُ الْجَمَال. كُنْتَ فِي عَدْنٍ جَنَّةِ اللَّهِ. كُلُّ حَجَرٍ كَرِيمٍ سِتَارَتُكَ, عَقِيقٌ أَحْمَرُ وَيَاقُوتٌ أَصْفَرُ وَعَقِيقٌ أَبْيَضُ وَزَبَرْجَدٌ وَجَزْعٌ وَيَشْبٌ وَيَاقُوتٌ أَزْرَقُ وَبَهْرَمَانٌ وَزُمُرُّدٌ وَذَهَبٌ. أَنْشَأُوا فِيكَ صَنْعَةَ صِيغَةِ الْفُصُوصِ وَتَرْصِيعِهَا يَوْمَ خُلِقْتَ".

الرسالة ١٠٥ يقول باسيليوس أيضاً: "الروح القدس في جوهر الله، ينبوع التقديس، القوة التي تعطي الحياة، النعمة التي تكمل والذي به ينال الإنسان التبني، والمائت يصبح خالداً .. هو قوة ملكوت الله".

كذلك في الرسالة ١٥٩ يقول: "الروح هو الذي يُعلِّم، المخلوق يتقدس والروح هو الذي يُقدس وإذا سمينا الملائكة ورؤساء الملائكة وكل القوات السماوية قديسين، فالكل يأخذون تقديسهم من الروح" (راجع الترجمة الإنجليزية ص ٢١٢).

مقارنة سقوط آدم، بتواضع الرب وإخلائه لذاته

يقول أوغسطينوس في العظة ٢٦٤ على عيد الصعود:

"يا إخوتي وأخواتي الأحباء ماذا يقصد الرسول بقوله: "لم يحسب مساواته لله سرقة؟ لأنه (الابن) مساوٍ في الطبيعة. ولكن مَن الذي حُسبت مساواته لله سرقة؟ هو الإنسان الأول الذي قيل له "إذا أكلت تصير مثل الله" (تك ٣: ٥) لقد أراد بالسرقة أن يرفع ذاته إلى مساواة الله، وكانت عقوبته هي أنه فَقَدَ الخلود. أما ذاك الذي قيل إنه لم يسرق هذه المساواة .. (فيلبي ٢: ٧ – ٨) مجلد ٣: ٧ ص ٢٢٨).

لكن في نفس العظة الفقرة ٤ ص ٢٣٠ يقول عن المسيح الرب:

"أنا ابتعد عنكم بالشكل الخارجي ولكنني أملأكم بذاتي في القلب. وأنا أقصد هل يمكن للمسيح أن يدخل القلب باللحم وحسب اللحم؟ أليست هي إلوهيته التي تجعله يملك القلب، لأنه حسب الجسد يتكلم للقلب بالعينين، ويعلِّم ما نسمعه من الخارج (بواسطة الأذنين)، أمَّا عندما يسكن فينا، فإنه يحولنا داخلياً ويُحضرنا للحياة التي منه والتي تتكون منه ..." ص ٢٣٠.

وفي العظة ٢٦٥ على الصعود يقول:

"سوف يأتي للبشر ليس كمجرد إنسان، ولكن سوف يأتي كإله متجسد.

سوف يأتي كإنسان حقيقي وكإله لكي يجعل البشر آلهة" (ص ٢٣٦ نفس المجلد).

ثانياً: تألُّه الإنسان في يسوع المسيح:

في شرح المزمور ٤٩: ٢ حسب الفولجاتا وهو يقتبس نص مزمور ٨١ "أنا قلت أنتم آلهة"، يقول أُغسطينوس:

"من الواضح أن الله يدعو البشر "آلهة" بالمعنى أننا تألهنا بواسطة النعمة، وليس لأننا وُلدنا من جوهره (الله)".

وبعد ذلك:

"بالإضافة إلى عمله فينا، الذي "يبررنا" هو نفسه الذي "يؤلِّهنا"؛ لأنه عندما "يبررنا" يجعلنا أبناء الله".

ثم:

"إذا كنا قد جُعلنا أبناء الله، فقد جُعلنا آلهة، ولكننا آلهة بنعمته التي بها نلنا التبني".

وفي شرح مزمور ١١٧: ١١ حيث يشرح معنى "يمين الرب"، يقول:

"قوة فائقة حقاً كنَّا في حاجة إليها لكي ترفعنا من الأسفل، لكي تؤلِّهنا نحن المائتين، لكي تجعل الضعفاء كاملين، وتمنح المجد للساقطين والانتصار للمتألمين" (الترجمة الحديثة مجلد ٣: ١٩ ص ٣٣٧).

وفي العظة ١٦٦: ٤ يقول للشعب:

"ها أنتم ترون أن الله يريد أن يجعل كل واحد منكم إلهاً، ليس بالطبيعة مثل الذي وُلِدَ من الآب، ولكن بعطية التبني".

ومثل آباء الكنيسة الشرقية يعظ أوغسطينوس الشعب ويقول:

"لكي يجعل آلهةً من البشر، تجسَّد وهو الله" (عظة ١٩٢: ١).

ولم يفصل أوغسطينوس بين التبرير ونعمة التبني والتأله، إذ يقول كما مر بنا سابقاً في شرح المزمور ٤٩:

"الذي يبرر هو نفسه البار وليس آخر. ومن يؤلِّه هو ذاته الله ... الذي يبرر هو ذاته الذي يؤلِّه؛ لأنه بالتبرير يجعلنا أبناء الله".

-٥-

الحجم الحقيقي للمشكلة

لم تكن المشكلة في المصطلحات، ولا في الترجمة، ولا في الاختلاف حول شرح كلمات الكتاب المقدس ... الخ. المشكلة الحقيقية هي خلق تهمة "الشرك" من العدم، أي مما لا وجود له لا عند الآباء، ولا في كتابات الأب متى المسكين، ولا في الدراسات الموجزة التي نشرناها، ولا حتى في الترجمة الصحيحة لكلمات يونانية مثل theosis وغيرها. أبداً. المشكلة هي خلق تهمة من لا شيء، ثم محاولة تثبيت هذه التهمة بالكذب وبالتدليس. لم نقرأ نصاً أو عبارة تقول إننا سنكون مثل الابن في الآب، بل عندما يُستعلن المسيح الإله المتجسد "سنكون مثله" (١يوحنا ٣: ٣)، وهي عبارة الرسول يوحنا التي لم يتجاسر أحد من المدعين علينا كذباً أن يقدم لها شرحاً آبائياً كتابياً. ولكن لم تكن هذه العبارة الرسولية وغيرها دعوة لأن يصبح الإنسان مثل الله موجود في كل مكان قادراً على كل شيء .. الخ من قائمة اتهامات كاذبة بكل ما تحمله كلمة "كذب" من معان. لكن توظيف الكذب لمصالح شخصية أجرى صياح الغوغاء ضد الإيمان نفسه، وهكذا تم حشد الغوغاء ضد التعليم الرسولي الآبائي، ووُضِعَ أمام الغوغاء ما تقبَّله الغوغاء، وهو إننا "عبيد الله" كما قال اللاهوتي الأوحد، لأن الخوف من الشرك قابع في وجدان من عاش تحت حكم الإسلام وثقافته قرابة ١٤٠٠ سنة.

الوجه الأول للمشكلة:

هو عدم الإيمان بالتجسد. وعدم الإيمان بالتجسد يتساوى مع إنكار الشركة

في الطبيعة الإلهية، وخلف هذا وذاك تقبع الحقائق التالية:

١- الإصرار على التعليم النسطوري القائل بأننا نأخذ ناسوت المسيح فقط؟ وصاحب هذه العبارة لا يمكن أن يؤمن بأن الابن المتجسد هو نفسه الذي يعطي بيديه جسده ودمه لكي نشترك في حياته الإلهية المتجسدة.

٢- إنكار مقنَّع للإتحاد الأقنومي، وهو ما ظهر في إنكار تألُّه ناسوت الرب نفسه، أي إنكار الإتحاد الأقنومي، هذا الاتحاد الذي جعل ناسوت الرب واهباً للحياة، والقيامة، وغفران الخطايا، وشفاء الجسد والروح، ليس لأنه مجرد "ناسوت"، بل لأنه جسد الكلمة الحي والمحيي. فالجسد الواهب الحياة للعالم، ليس مجرد جسد؛ لأن طبيعة الأجساد بما فيها جسد المسيح نفسه لا تهب الحياة، ولكن جسد المسيح يهب الحياة لأنه جسد الكلمة الحي الذي أقام روح الآب جسده من الأموات (رو ٨: ١١) لكي يؤكد لنا أن الجسد مستقلاً عن أقنوم الكلمة لا قيامة له ولا قيامة فيه، ولكن لأنه - كما ردد القديس أثناسيوس في أكثر من موضع - "جسد الحياة"، لأنه بسبب اتحاد الكلمة به صار هذا الجسد واهباً للحياة.

٣- وقد ظهر عدم الإيمان بالتجسد، وإنكار الاتحاد الأقنومي في الآتي:

أولاً: في إنكار أننا نأخذ ونشترك في إلوهية الرب في سر الإفخارستيا؛ لأن هذا يؤيد الشركة في الطبيعة الإلهية، وبالتالي ينحرف المسار حتى يصل إلى إنكار السر المجيد نفسه خوفاً من الإيمان بالشركة.

ثانياً: في إنكار تألُّه الناسوت كواهب لحياة الابن نفسه، وهو الجانب الكهنوتي لكهنوت الرب يسوع كوسيط بين الله والبشر "الإنسان يسوع المسيح". وصياغة الرسول جديرة بالاهتمام: "لأَنَّهُ يُوجَدُ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَوَسِيطٌ وَاحِدٌ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ الإِنْسَانُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ. الَّذِي بَذَلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً لأَجْلِ الْجَمِيعِ، .." (١تيمو ٢: ٥). وتأكيد الرسول على إنسانية الوسيط هو تأكيد على انتماء الوسيط للبشر وإلى الله،

وأنه بهذه الوساطة ينقل إلينا من خلال تجسده وموته المحيي وقيامته التي داس بها الموت، الحياة الإلهية.

٤– عندما ترجمنا كتاب القديس باسيليوس "عن الروح القدس" وجدنا أمامنا حيلة الهراطقة التي أدركها المعلم الكنسي، وهي حشد الكلمات، وحروف الجر، بالإضافة إلى جمع أكبر عدد ممكن من نصوص الكتاب المقدس لإغراء القارئ. وهي ذات حيلة أريوس – أنوميوس – نسطوريوس – أوطاخي .. الكل معاً يقف خلف كلمات معينة تكتب بطريقة خاصة لكي تسد الطريق على الفهم الصحيح.

الوجه الثاني للمشكلة:

هو فهم الشركة في الطبيعة الإلهية (التألُّه) على أنها شِركٌ بالله.

وفي الحقيقة، ليس نحن الذين "أشركنا بالله"، وإنما الله هو الذي أشرك حياته وجوهره وأقانيم إلوهيته بنا عندما أرسل الآبُ الابنَ لكي يتجسد. فالتجسد دعوة للشرك في معناه الصحيح؛ لأن "المحبة في التوحيد شركٌ صحيح"[(١)].

لقد حصر القرآن مفردات الشركة – المشركون – الشرك، في عبادة الأصنام. وقد دعا المسلمون إلى مقاومة كل أنواع الشرك بالله، هذا موقف تاريخي لا يمكن إنكار صحته، ولكن دعوة المسيحية ليست مثل دعوة الإسلام، فقد عاشت المسيحية في عصورها الأولى زهاء ٤٠٠ سنة وبالتحديد حتى سنة ٣٩٠م وهي السنة التي أعلن الإمبراطور ثيئودوسيوس المسيحية ديانة الإمبراطورية، ولم يكن قسطنطين هو الذي

(١) العبارة هي للأب صفرونيوس "رسالة إلى العارفين بالله"، حيث يقول: "المحبة في التوحيد شرك صحيح لأن المحبة التي لا تُشرك ليست محبة حقيقية، وتلك التي تعلو على من يحب هي محبة باطلة، أما تلك التي تشرك المحبوب في خيرات المحب فهي محبة إلهية ودعوة صادقة لتوحيد صحيح؛ لأن التوحيد عندنا هو "شركة في الله بالروح القدس".

وضع المسيحية كديانة للأمبراطورية في ٣١٨م حسب منشور ميلان، ومع ذلك كانت دعوة الإنجيل كما قدَّمها أب لاهوتي الغرب القديس أوغسطينوس تقوم على إنكار كل أشكال الوثنية؛ لأن الإنسان الذي يصنع "إلهاً" لا يدرك أنه هو الإله، وأنه لا يجب أن يترل إلى هذا المستوى الرديء من الإدراك، ولذلك يقول أوغسطينوس:

Vos adoratis deum, qui uos facit deos, illi autem adorant deos, quos faciendo et adorando perdunt ut ipsi dii faint.

"جعلنا إلهنا آلهة ولكنهم يعبدون آلهةً خلقوها" (العظة ٦: ٣).

ودعَّم القديس أوغسطينوس هذه الرؤيا بكلمات المزمور عن الأصنام التي تُشبه البشر "لها أفواه ولا تتكلم، لها أعين ولا تبصر... ثم الأهم مثلها (الأصنام) يكون صانعوها وكل من يتكل عليها" (مز ١٣٥: ١٥ - ١٨). العبادة تحوِّل الإنسان داخلياً إلى ما يعبد، والالتصاق بالأصنام يجعل عابدي الأصنام مثل الأصنام نفسها بلا حس وبلا وعي إنساني ينمو.

هكذا يشرح أوغسطينوس العبادة الوثنية:

"تصبح النفس داخلياً على نحو ما بلا إحساس، وغبية، ويصبح مَن يعبد الأوثان مثل الوثن، يدمر في كيانه صورة الله خالقه؛ لأنه يأخذ صورةً خلقها هو لنفسه" (عظة ٦: ٥).

ولذلك علينا أن نفتح "ملف" الليتورجية بكل ما فيه، كيف تحوِّلنا الليتورجية كشركة في الله الثالوث بواسطة اتحادنا بالمسيح وبسكنى الروح، إلى ذات الحياة الإلهية التي تنسكب فينا بقوة الروح القدس.

إن الإنسان هو ما يعبد.

ضرورة التمييز التام بين الطبيعة والنعمة بسبب التجسد:

علينا أن نميِّز بشكل تام أن ما أخذته الإنسانية في المسيح هو ما حدث

للناسوت بسبب تحوله من الطبيعة الآدمية الترابية إلى طبيعة مجيدة سمائية خالدة متحدة بالله وحية إلى الأبد.

- تحوَّل الترابي ← سمائي.
- تحوَّل المائت ← خالد.
- تحوَّل الإنسان ← إلى شركة أبدية في حياة الله نفسه.
- تحوَّل الضعيف ← قوة.
- تحوَّل الفاسد ← إلى عدم فساد.

هذا التحوُّل في كيان الإنسان بدأ أولاً في المسيح، وطبعاً ليس في إلوهية الابن، بل بسبب التجسد والإتحاد وغلبة الموت على الصليب والقيامة من الأموات.

لم يحدث هذا التحول بقوة الناسوت، فقد سدَّ الرب نفسه الباب على كل مَن يدَّعي بأن الناسوت وحده قادر على أن يعطي الحياة بقوله: "الروح هو الذي يُحيي، أما الجسد فلا يفيد شيئاً" (يوحنا ٦: ٦٣).

الطبيعة الإنسانية بدون الشركة في طبيعة الله ليست خالدة ولا مجيدة ولا حية إلى الأبد. إن لم تتحول إلى ذات طبيعة ناسوت الرب نفسه بعد أن تَمَجَّد لا تأخذ شيئاً، بل تبقى في الموت والفساد إلى الأبد.

-٦-

ما هو وجه الخطأ في التعليم باشتهاء الإلوهة، ورفض تألَّه الإنسان؟

الخطأ الأول: هو تعبير "اشتهاء الإلوهة" نفسه؛ لأن آدم وهو مخلوق على صورة الله لم يشتهِ الإلوهة، وإنما انفرد القديس أوغسطينوس بأنه أراد أن يكون مساوياً لله. الفرق كبير بين أن يظل الإنسان صورة الله، وأن يتحول الإنسان ليكون أصلاً، وهو تحول يفقد فيه الإنسان الصورة نفسها لأنه فقد مصدر الحياة.

الخطأ الثاني: هو خطأ أفدح وأكبر بكثير من الخطأ الأول، وينتج عنه؛ لأنه يقول لنا:

* إن الحياة الأبدية طبيعة في الإنسان، فهو لا يحتاج إلى الطبيعة الأبدية التي تمنحه الحياة الأبدية.

* لأنه ينكر تحول الإنسان إلى ذات مجد المسيح، وهو مجد غير مخلوق، هو مجد اللاهوت، هو مجد اتحاد الخالد – الحي – القوي – الابن بالطبيعة، بالميت – الفاسد – الضعيف – الذي هو في الهوان، وهو ما جادت به مقارنة الرسول بولس في (١كو ١٥: ٤٠ وما بعدها).

لقد تمجَّد الإنسان بكل غنى ومجد اللاهوت كما أُعلن في يسوع المسيح، وحسب تحول الناسوت فيه: اشتركنا في مسحته – في صلبه وقيامته – في صعوده إلى السماء لأنه أجلسنا معه في السموات (أف ٢: ٦)، ولم تكن هذه هي حركة تحول الإنسان يسوع المسيح إلى إنسان مجيد قوي عظيم جالس عن يمين الآب، أي أن هذا

التحول لم يحدث لشخص يسوع لأنه إنسان، بل لأنه ابن الله المتجسد الذي حمل فيه الإنسانية كلها ونقلها فيه إلى الحياة المجيدة.

الخطأ الثالث: ودون أي مجاملة، هو تجديف صدر عن جهل، وسوف نعفي القائلين به من تهمة "التجديف عن عمد"؛ لأننا نعتقد أن ما كتبوه، كتبوه في غضب وفي سرعة ودون دراسة وفي محاولة ساخرة لإثارة الغوغاء إذ وصلت إلى حد الاتهام بالشرك الذي يحاربه الإسلام أحياناً بالعنف(١).

وهو تجديف عن جهل لأنه:

١– يمس التجسد نفسه، أي إتحاد اللاهوت بالناسوت.

٢– يهدم كل مراحل تحول الإنسانية في المسيح، ويجعل من عمل الرب يسوع إعادة الإنسان إلى سلطان الشيطان، أو ما يمكن أن نسميه بـــ"شيطنة النعمة".

٣– يفصل الإنسان عن الله، ويحول الإنسان إلى إله بالطبيعة، وبالتالي يصبح خالداً بالطبيعة لا يموت، وحياً إلى الأبد بالطبيعة غير القابلة للموت.

٤– والباقي واضح، وهو إنكار كل قوة السرائر لا سيما الإفخارستيا.

+ + +

---

(١) يقول الأنبا شنودة في كتاب بدع حديثة ص ١٥٩: "فهم يدعون إذن الشركة في اللاهوت!! ولعل هذا بعض مما يسميه أخوتنا المسلمون "الشرك بالله"".

موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية



د. جورج حبيب بباوي

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الخامسة

www.coptology.com

Coptology

Ⲍⲁⲛⲱϣ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

محاضرات في

تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الخامسة

دكتور

جورج حبيب باوي

٢٠١٠

٢

الخلق والتجسد،
ونعمة الحياة الجديدة في المسيح

مَن يدرس كتاب تجسد الكلمة بعناية يستطيع أن يرى أن القديس أثناسيوس قدَّم بوضوح موضوع التجسد في الفصول السبعة الأولى في إطار محدد، هو:

- خلق الكون من العدم.
- خلق الإنسان على صورة الكلمة.
- سقوط الإنسانية في آدم.
- مجيء الكلمة الابن بسبب صلاحه ومحبته.

ولذلك لا تسمح الدراسة الجادة لكتاب تجسد الكلمة أن ندور في دهاليز "التخمين" عن سبب مجيء الكلمة متجسداً، فالقديس والمعلم العظيم يحدد هذا السبب على سبيل القطع في كل كتاباته، ويبرزه – بشكل خاص – في الرد على الأريوسيين.

ففي تجسد الكلمة نجد أن:

– "الكلمة خالق كل الأشياء، وهو محب البشر هو ذاته الكلمة الذي وهب الإنسان أن يشترك في قوة الكلمة الإلهية لكي يحيا الحياة الإنسانية حسب اللوغوس أي ليكون عاقلاً" (تجسد الكلمة ٤: ٦ – ٥: ١ – ٦: ٤).

– "هو محب البشر والوحيد القادر أن يأتي بالفاسد إلى عدم فساد" (٧: ٥).

– "وأن يرد للإنسان الصورة الإلهية أي النعمة التي فقدها الإنسان" (٧: ٤).

ومن هنا يتضح لنا أن الخطية الأولى كانت فقدان نعمة، ولم تكن – كما هو سائد في أدبيات العصر الوسيط – عصيان وتمرد على الله، فقد استدار الإنسان نحو ذاته ليكوِّن صورةً لنفسه، وكان هذا هو السقوط في جوهره.

وهنا يبرز سؤال يطرح نفسه: من الذي كان يستطيع أن يعيد للإنسان النعمة؟

الجواب: هو واهب النعمة:

"كلمة الله الذي خلق في البدء كل شيء من العدم" (٧: ٤).

هنا يكون الشرق الأرثوذكسي قد حدد أن سقوط الإنسان ليس هو فقدان النعمة، بل فقدان الشركة.

فقد جاء الكلمة متجسداً لكي "يشترك الإنسان في حياته"، وفي وجوده الإلهي كأقنوم في الثالوث. فالخلاص هو عودة الإنسان إلى حياة الشركة، وإلى الصورة ليس بوسيلة مخلوقة ولا بواسطة مخلوق، بل بواسطة الخالق.

وبالتالي لم يكن الخلاص هو دفع فدية[١] حسب تعليم العصر الوسيط السائد[٢] عندنا الآن في كتابات الأنبا بيشوي والأنبا شنودة الثالث.

> **"لأنه هو الكائن الكلي القدرة وخالق كل الأشياء، أعد الجسد من العذراء ليكون هيكلاً له وجعله جسده الخاص متخذاً إياه أداةً ليسكن فيه ويُظهر ذاته به"** (تجسد الكلمة ٨: ٣)[٣].

وهنا أيضاً يتبين لنا أن إعلان الكلمة عن ذاته كان أحد أهداف التجسد؛ لأن هذا الإعلان يتضمن أيضاً الإعلان عن الآب، وكذلك الروح القدس.

---

(١) راجع بالتفصيل كيف استخدم القديس أثناسيوس كلمة العهد الجديد نفسه "فدية" وفي أي إطار يجب أن نفهم كلمة الفدية – حسب شرح القديس أثناسيوس نفسه – وذلك في دراستنا عن موت المسيح على الصليب، منشورة على موقع www.coptology.com

(٢) إن ظهور صلاح الله ومحبته بحرية تامة خلواً من قيود القانون يُعد تهديداً خطيراً لكل نظام ثقافي واجتماعي، ولذلك كان الهدف الذي سعت إليه التوليفة القانونية الأوربية التي جاء بها لاهوت العصر الوسيط هو تكوين المواطن المسيحي "المدجَّن" الذي يتحول إلى خادم مطيع للثقافة والقانون عن طريق "تدجين" الإنجيل، وهو ما كشف عن فقدان للرؤيا الأبدية لمحبة الله حيث لا يسود قانون مهما كان.

(٣) لم يذكر القديس أثناسيوس في هذه الفقرة حلول الروح القدس على والدة الإله العذراء مريم لكي يتجسد منها ابن الله، ولكن نلفت النظر إلى إن دور الروح القدس كان قد شُرِحَ بكفاية في الرسائل إلى سرابيون.

أركان الإيمان المسيحي الأرثوذكسي

هكذا يجب أن نفهم أركان الإيمان المسيحي نفسه والأرثوذكسي بشكل خاص.

أولاً: إن ما خُلِقَ من العدم يستمد كل ما فيه من الله، لأن وجوده ليس من ذاته.

ثانياً: لا توجد لدى الإنسانية بشكل خاص القدرة على تغيير كيانها بدون نعمة الله الوافرة التي تعيد للإنسان الحياة التي فقدها.

و"فقدان الحياة" هنا هو تعبير معلمنا العظيم عندما كان يناقش عدم كفاية التوبة لتجديد الإنسان؛ لأن التوبة:

"لا تقدر أن تغير طبيعة الإنسان، بل كل ما تستطيعه هو أن تمنعهم من السقوط في الخطية" (٧: ٣). فالمأساة هي أن "تعدي الإنسان" لم يعد "مجرد عمل خاطئ لم يتبعه الفساد" (٧:٤)، فقد حدث تغيير في طبيعة الإنسان وسقط الإنسان تحت سلطان الموت بسبب تحول الطبيعة الإنسانية إلى "الفساد"، أي الانحلال الطبيعي، وأيضاً لأن الله حذَّر الإنسان من العصيان، وحذَّره من الموت، ولكن الإنسان وجد نفسه في هذا المأزق الذي لا مهرب منه بالمرة:

- الموت بسبب الخطية.
- الحكم بالموت

هذه الثنائية هامة جداً؛ لأن الشق الأول منها هو تحول طبيعة الإنسان من الوجود "حسب الصورة" إلى الوجود "حسب الطبيعة" الأولى التي جاء منها الإنسان، وهي العدم. وقبل أن تتوتر الأعصاب وتنطلق الاتهامات، لم يعد الإنسان إلى العدم؛ لأن صلاح الله أبقى على الإنسان في الموت لكي يأتي المخلص ويجدده. ولذلك عندما يشرح أثناسيوس العظيم القوة الإلهية المحركة للتجسد، يقول:

"لكنه أتى إلينا في تنازله، ليظهر محبته لنا ويفتقدنا ... وإذ رأى أن الجنس البشري العاقل يهلك وأن الموت يملك عليهم بالفناء، وإذ

رأى أيضاً أن حكم التعدي قد خلَّدَ الفناء فينا" (٨: ١ – ٢).
ولاحظ بقية الكلمات
"لم يحتمل أن يرى الموت وقد صار له السيادة علينا لئلا تفنى الخليقة ويتلاشى عمل الله .. " (٨: ٢).

لقد بقي الإنسان في الوجود كمائت، أو حسب تشبيه أثناسيوس مثل مدينة أحاط بها الأعداء، ولكن الملك جاء وسكن في المدينة (٩: ٣)، ولذلك بطلت كل مؤامرة العدو ضد البشر (٩: ٤).

ثالثاً: بدون الشركة في حياة الكلمة لا خلاص لنا.

هذه الحقيقة البسيطة لا يمكن تجاهلها؛ لأن الإنسان المخلوق من العدم لا يملك حتى حياته الخاصة الإنسانية. لهذا جاء التدبير الإلهي بالمخلص الإلهي لكي ما يعطينا من إلوهيته القدرة على البقاء الأبدي ليس في حالة الانفصال، بل حسب عطية "التبني".

وهكذا فالادعاء بأن سقوط آدم كان هو اشتهاء الإلوهة مثل سقوط الشيطان، تكون نتيجته تحطيم التجديد أو التدبير، ليس ذلك فقط، بل يعيدنا ذلك إلى ذات حالة الشيطان نفسه ... يا له من تجديف على الرب يسوع!!!

طبيعة جسد الكلمة

حسب ترتيب الفصول نفسها يضع أمامنا معلمنا العظيم تحديداً دقيقاً لجسد الكلمة:

* "جسداً مماثلاً لطبيعة أجسادنا" (٨: ٤ — ٩: ٢ — ٩: ٤ — ١٠: ٤).
* "جسداً قابلاً للموت" (٩: ١ — ١٣: ٩ — ٢٠: ٤ — ٣١: ٤).
* "جسدُ بشر" (١٧: ٢).
* "الجسد ... كان جسداً بشرياً" (٢٠: ٤).

وعبارة "جسداً مماثلاً لطبيعة أجسادنا"، هي عبارة تؤكد أن جسد المسيح من

ذات الطبيعة التي ينتمي إليها البشر، وخلف هذا التأكيد تكمن حقيقة تاريخية، هـي الدفاع عن شخص المسيح ضد بدعة "الدوستية"[(١)] الذين اعتبروا أن جسـد المسـيح جسداً خيالياً، أي أن له شكلاً إنسانياً، ولكنه بلا طبيعة إنسانية حقيقية.

لكن هذا التأكيد على حقيقة التجسد عند القديس أثناسيوس يجب ألاَّ نراه في شكل دفاع ضد الهرطقة القديمة، بل من خلال محتوى وطريقة شرح الإيمان نفسـه، ففي الفقرة ٨: ٤ هناك تشديد على أن الجسد خاضع للموت مثل جميع البشر الـذين خضعوا للموت:

"وهكذا إذ اتخذ جسداً مماثلاً لطبيعة أجسادنا (نحن البشر) وإذ كان الجميع خاضعين للموت والفساد، فقد بذل جسده للموت عن الجميع وقدمه للآب. كل هذا فعله من أجل محبته للبشر:

أولاً: لكي إذ كان الجميع قد ماتوا فيه، فإنه يُبطل عن البشر حكم الموت والفناء؛ لأن سلطان الموت قد أبيد في جسد الرب، فلا يعود للموت سلطان على أجساد البشر.

ثانياً: وأيضاً؛ لأن البشر الذين رجعوا إلى الفساد بالمعصية، يعيدهم إلى عدم الفساد ويحييهم من الموت بالجسد الذي جعله جسده الذاتي (الخاص) وبنعمة القيامة يبيد الموت فيهم كما تبيد النار القش" (تجسد الكلمة ٨: ٤).

تعد هذه الفقرة بالذات ملخص هام لشرح القديس أثناسيوس، ولكن يجب أن لا تحرمنا كثافة الشرح من اكتشاف التعليم نظراً لدقته، فهو يؤكد:

* خضوع كل البشر للموت، وبالتالي كان جسد الرب خاضعاً للموت مثل كل البشر.

* هذا الخضوع للموت لا ينال من مجد الابن، ولا من إلوهيته، بـل علـى

---

(١) يترجم اسم الهرطقة إلى "الخيالية" من Docetism وتعتبر أول هرطقة في تاريخ المسيحية. حاربها الشهيد أغناطيوس الإنطاكي، وهي تؤدي حتماً إلى تطور لاحق وهو إنكار التجسد (والاكتفاء بلاهوت الابن وحده)، وبالتالي إنكار الصلب، وبالتالي إنكار القيامة.

العكس، فهو تعبير عن "محبته للبشر"، "هو دخولُ مَن هو الحياة" إلى دنيـــا الأمـــوات لكي يقلب كل شيء رأساً على عقب.

* لقد دخل الرب إلى دنيا الأموات بجسد قابل للموت (٩: ١ – ١٣: ٩ – ٢٠: ٤ – ٣١: ٤)؛ لكي يقبل الموت، وقبول الموت في جسد خاضع للمـــوت هـــو الأسلوب الوحيد للقضاء على الموت؛ لأن الموت لا يمكن أن يدخل إلى الإله المتجسد إذا كان الإله المتجسد متحصن "في عدم الموت"، أي اللاهوت، ولكنه ترك الموت يأتيه لكي يبيده.

* ولعلنا هنا يجب أن نقف قليلاً أمام نقطة هامة، بل لعلنا نأسف إذ لم يتوسع القديس أثناسيوس في شرحها، وهي علاقة الموت بالفناء. فالحكم بالموت هو بقـــاءٌ في الموت إلى الأبد. هذا هو معنى كلمات سفر التكوين (تك ٢: ١٦ – ١٧)، فـــ "موتاً تموت" لا تعني بالقطع مجرد الموت فقط، بل البقاء في فساد الموت إلى الأبد (٣: ٥).

* لكن الفناء هنا يجب أن يُستوعب من حقيقة واحدة هامة، وهي أن الإنسان كائن حي ذي جسد، يحيا جسدياً في الكون الذي خلقه الله لكي يكون الإنسان فيـــه "سيد وملك الخليقة" ، "كصورة الله"، ولذلك إذا لم يتحقق هـــذا، تحـــول الوجـــود الإنساني إلى "عدم"، وحتى كلمة "فناء" (٤: ٦ – ٥: ٤)، أو كلمـــة "انحـــلال"، أو "فساد" (٦: ١ – ٦: ٤ – ٧: ٢ – ٨: ٢)، فهذه كلها تعابير عن عـــدم وصـــول خليقة الله إلى غايتها، وهي "أن تعيش مثل الله" (٤: ٦)، ولكنها سقطت تحت سيادة الموت. وحسب الترجمة العربية الحديثة، وهي أقـــرب إلى قـــوة التعـــبير في الأصـــل اليوناني[1]:

> **"بدأ البشر يموتون ... بدأ الفساد يسود عليهم، بل صارت له سيادة على كل البشر أقوى من سيادته الطبيعية، وذلك لأنه حدث نتيجة عصيان الوصية التي حذَّرهم الله أن لا يخالفوها"** (٥: ٢).

إذن، فالبقاء في الكون كصورة لله، هو بقاء مستحيل بدون الشركة، ولكـــن

([1]) راجع تجسد الكلمة، ترجمة د. جوزيف موريس فلتس – المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية – القاهرة – سلسلة نصوص آبائية ٦٢ – الطبعة الأولى أغسطس ٢٠٠٢.

بالشركة وحدها يبقى الإنسان حياً في الجسد، فالجسد لا يمكن أن يكون إلاَّ حياة الإنسان الحقيقية في الكون، فإذا ضَرَبَ الموتُ هذا الوجود الإنساني، وسقط الإنسان تحت سيادة الموت الذي اكتسب سيادةً على الإنسان بسبب انقطاع العلاقة بين الله والإنسان، وبما أن الله هو مصدر الحياة، واللوغوس هو النور الذي يتبعه الإنسان كظلٍ له (٣: ٣)، فإن الانحلال هو فقدان هذه الوحدة التامة بين الجسد والروح، وبقاء الإنسان في الموت هو بقاء لحياة غير إنسانية بالمرة تتعارض مع غاية خلق الإنسان.

الرد على الاتهامات المعاصرة

يُعد كلٌ من M. Richard و A. L. Petterson و J. Liebaert من أقوى خصوم معلمنا القديس أثناسيوس السكندري[١]. فقد قالوا كلهم إن أثناسيوس وقع تحت تأثير الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، وكلهم قالوا إن أثناسيوس بشكل عام اعتقد بأن الروح سُجِنَت في سجن الجسد، وأن الجسد هو مشكلة الإنسان الأولى والأخيرة، وأن الروح حرةَ لا تموت، ولا تتأثر بالعواطف وميول الجسد.

هذا هراء وسخافة.

ومع ذلك أصبح الرد عليهم ضرورياً من أجل سلامة الإيمان نفسه، وليس حفظاً لكرامة معلم عظيم يستحق كل دفاع شريف كريم. وبدايةً نلفت النظر إلى أن هذه الاتهامات تخفي خلفها الموضوع الأصلي، وهو "معاداة النسك"؛ لأنه تحت تأثير المدرسة الألمانية التي قادها هارناك *Harnack* ظل عدد كبير من تلاميذه يعتقدون أن الآباء أدخلوا الفلسفة اليونانية في اللاهوت ونزعوا عن اللاهوت المسيحي كل صلة بالكتاب المقدس وبشكل خاص التعليم النبوي العبراني.

---

(١) راجع:

1- M. Richard, St Athanasius and the psychological life of Christ and Arianism, 1947, p5ff.

2- A. L .Petterson, The Questioning Christ in Athanasuis Contra Arianus 111. 1987, p 327ff.

3- J. Liebaert, La Doctrine Christologique, 1951, p 148ff.

وهنا سوف نكتفي بعجالة سريعة، ولكن مركزة جداً حتى نعود إلى الموضوع الأصلي:

أولاً: الجسد حسب الرسالة إلى الوثنيين وتجسد الكلمة، هو مخلوق بإرادة الله الصالح الذي لم يخلق الشر، بل خلق كل شيء صالحاً بواسطة اللوغـــوس – الكلمـــة (الرسالة إلى الوثنيين: الفصل الأول كله – تجسد الكلمة: الفصل الثاني والثالث).

إن صلاح الخليقة هو ضد تعليم "الغنوصيين"، وينفي عن النسك الذي يؤمن بخلق كل الأشياء بواسطة الله الصالح، كل تعليم بأن الجسد شرير أو مصدر الشر.

ثانياً: حسب الأنبياء، الإنسان "صورة الله ومثاله"، وأنه شريك الكلمة في قوة الكلمة العاقلة (تجسد الكلمة ٣: ٣)، وأن هذه الشركة هي "نعمة" سبق الله وأعطاها للإنسان بالإضافة إلى "نعمة الخلق من العدم" (تجسد الكلمة ٣: ٣). هذا التعليم غائب عن مدارس الفلسفة اليونانية السابقة والمعاصرة للقديس أثناسيوس، وبالتالي لم يـــدخل الشر من الجسد حسب تعليم الغنوسية، وليس الجسد هو مصدر معاناة وألم الـــنفس حسب تعليم أفلوطين[١].

من المضحك المبكي أن نسلم بصحة ما قاله هؤلاء عن القديس أثناســيوس؛ لأنه كيف لمن فنَّد الأفكار المعاصرة عند اليونانيين والغنوسيين (تجسد الكلمة – الفصل الثاني كله)، أن يكون هو نفسه تلميذاً لهم**!!**

وهنا يمكننا أن نطرح السؤال الآتي:

ما هو الحد الفاصل بين العلم المسيحي الأرثوذكسي، والمـــدارس الفلســـفية المعاصرة له والسابقة عليه؟

والجواب:

١- الكون من عمل وخلق الله الصالح.

٢- الآب الصالح يضبط كل الأشياء بالكلمة – اللوغوس. وأن كل شيء به وفيه يحيا ويتحرك (١: ١).

---

(١) راجع: Plotinus, Ennead. 3:6.1 وأيضاً Nemesius, De Natura Homini, 3:22

٣- صلاح ومحبة الله للبشر هي سبب خلق الإنسان على صورة الله (١: ٣)، وأن هذا الصلاح لم يتوقف عند خلق الإنسان، بل أكمل الخلق بالتجديد بواسطة خالق الكون، وهو الكلمة (١: ٤).

٤- الخلق من العدم (٣: ٣) هو تعبير مطلق عن صلاح الله الذي أتى بالإنسان إلى الوجود (٦: ٩).

٥- لم يكن سقوط الإنسان عملاً جسدانياً، أو بسبب "سجن الروح في جسد"، بل تم أولاً بغواية الشيطان (٦: ٤ – ٦: ٥)، وثانياً – وحسب عبارة المعلم السكندري نفسه -:

"البشر احتقروا تأمل الله"، أو "التفكير في الله" (٤: ٤).

وبدأ التراجع عن الحياة كصورة الله بخلق الشر حسب صورة الإنسان الذي أراد أن يعيش بدون شركة في الله.

وخلق الشر يظهر أولاً في الرسالة إلى الوثنيين ٣: ٥. فهو الشر الذي له وجود عقلي غير حقيقي، أي ليس له طبيعة خلقها الله (الرسالة إلى الوثنيين ٤: ٢٠)؛ لأن الوجود الحقيقي الذي خلقه الله يأخذ بقاؤه ويستمر في الوجود؛ لأن له مثال يمده بالبقاء، وهو الله نفسه (الرسالة ٤: ١٥ – ٢٠).

كما يظهر الشر ثانياً في كتاب تجسد الكلمة عندما يتحول اتجاه الإنسان:

"حوَّل البشر وجوههم عن الأمور الأبدية" (٥: ١).

وحسب الأصل:

"لكن البشر οιδε ανθροποι αποστραφεντες τα αιωνα"

والفعل هو αποστρεφω أي التحول إلى الجهة المضادة تماماً، وبذلك يصبح المعنى أكثر وضوحاً، وهو تحول عن الأمور الأبدية إلى ما هو غير أبدي.

هذا لم يحدث بسبب الجسد، أو في حياة سابقة على الجسد حسب تصور أفلاطون، بل حدث في حياة الإنسان وهو على الأرض، وفي وجوده الكامل روحاً وجسداً، فأدَّى هذا إلى دخول فكرة الموت في الحياة الإنسانية؛ لأن البقاء أصبح

مستمداً من كيان الإنسان نفسه وأصبح الإدراك قاصراً على الأمور المرئية القريبة إلى الحواس الخمس، و لم يعد للأبدية مكان في حياة الإنسان أو فكره.

هنا فقط اتجه الإنسان إلى الجسد وصار وجوده في الجسد هو الوجود الحقيقي المضمون لأن الإنسان ترك "صورة الله".

وحسب تعبير القديس أثناسيوس، وهو هنا يشرح ما حدث لآدم وحواء معاً في الفردوس كمثال لسقوط الإنسانية:

"بدأ يحدد كيانه، وكلاهما معاً (آدم وحواء) سقطا في الرغبات الجسدانية وأدركا أنهما عريانين ... لأنهما تركا تأمل الأمور الإلهية وحولا عقليهما إلى الاتجاه المضاد" (الرسالة إلى الوثنيين ٣: ٢ – ٢٥).

هنا بالذات وحسب كلمات المعلم السكندري:

"بهذا بدأت النفس *Soul* تضم المخاوف والرعب واللذات وأفكار الموت" (الرسالة إلى الوثنيين ٣: ٢٨ – ٣٠).

الفساد دب في الحياة الداخلية وامتد إلى الحياة الخارجية، أي الوجود الجسداني، وهو المكان الوحيد في العالم الذي يجعل الإنسان إنساناً.

٦- فإذا كان السقوط عقلياً أو روحياً على مستوى النفس أو الإدراك والتحول إلى الاتجاه المضاد لكي تصبح الحياة التي أفسدها الموت، وقد تحولت إلى الأقرب إلى الإدراك وهو الجسد لكي تضع في الجسد "الخوف والرعب وأفكار الموت" التي لم تأت من الجسد بل من مصدرين هما الشيطان وتحول الإنسان إلى ما هو ضد الله وضد ما هو أبدي.

٧- في كل مؤلفات القديس أثناسيوس يوجد ما يؤكد ضعف الجسد وانحلاله وعجزه، ولكن هناك أيضاً في نفس المؤلفات التشديد على قيامة الجسد، لا على التخلص منه بالمعنى الغنوصي أو تدميره في النسك غير المسيحي، بل لقد أكد أثناسيوس في أكثر من مرة على أن اتحاد الكلمة بالجسد يعني تقديس الجسد وربط

أثناسيوس ذلك بحقيقة إيمانية مؤداها أن:

أ- الكلمة غير مادي.

ب- الكلمة غير مائت، حوَّل الإنسان إلى غير مائت (٢٠: ١).

وهذا يعني أن اتحاد الكلمة بالجسد "يبقى في عدم فساد بسبب اتحاد الكلمة به" (٩: ١)، ولذلك أباد الكلمة الموت في الجسد (١٢: ٩ — ٢٠: ٤).

وفي عبارة موجزة يضع المعلم العظيم أساس الحياة المسيحية:

"لقد جاء الكلمة في جسد بشري وأعطاه الحياة (١٧: ٢).

ولذلك يضع أثناسيوس لبنة الأرثوذكسية في كلمتين عن تجسد الابن:

"الحضور المتجسد، وهو الحضور الذي به قدَّس الجسد" (١٧: ٥ — ٤٢: ٦).

وهكذا اشترك الجسد في صفات الكلمة:

- عدم الموت.
- وعدم الفساد.

وأضاف أثناسيوس إلى ذلك عدم الألم كأحد ثمار القيامة:

"أقامه حالاً في اليوم الثالث حاملاً عدم الفساد وعدم التألم اللذين حصلا لجسده كعلامة للظفر والانتصار على الموت" (٢٦: ١).

جسد آدم قبل السقوط أم بعد السقوط

طرح هذا الموضوع في أوساط الشيع البروتستانتية وبالذات عند شيعة الأدفنتست أو السبتيين، والاتجاه العام وضع تحت كلمتين:

Anti - Lapserian ما قبل السقوط

Lapserian السقوط

وطبعاً كان السؤال الذي لأجله عُقد المجمع السادس، وهو آخر مراحل الرؤية

الأرثوذكسية للتجسد، هو عن الإرادتين، وطبيعة الإرادة الإنسانية في المسيح. وتعد كتابات القديس مكسيموس المعترف هي أهم ما دون في هذه المرحلة ويليه في الأهمية ليونتيوس *Leontius*.

والذي يهمنا هنا دون الدخول في متاهات الصراعات الفلسفية حول الشخص – الأقنوم – الاتحاد الأقنومي ... إلخ هو أن القديس أثناسيوس لم يعاصر هذه الصراعات، ولم يستخدم حتى تعبير الطبيعة في شرحه لتجسد الرب، بل استخدم مفردات العهد الجديد: *Sarex – Flesh* و *Soma* جسد، ولم يميِّز بينهما. وما دار من حوار حول الفرق بين *Sarex* و *Soma* على أرض دراسات العهد الجديد في القرن العشرين غير معروف بالمرة عند القديس أثناسيوس، فهو لا يقول مطلقاً إن *Sarex* هي الطبيعة الساقطة، أو اللحم *Flesh* الشرير ... إلخ

وهذه هي عبارات القديس أثناسيوس نفسه التي لا يميِّز فيها بين *Sarex* و *Soma* عندما يشرح الإيمان الرسولي؛ لأنه عادة ما يستخدم كلمة "الإنسان":

"الكلمة صار إنساناً، أو ظهر في إنسان". وقد ورد هذا التعبير حوالي ٢١٣ مرة بحسب الأصل اليوناني في تجسد الكلمة.

"أخذ الكلمة جسداً". وقد ورد هذا التعبير على الأقل ١١ مرة في تجسد الكلمة في الفصول: ١، ٤، ٨، ٩، ١٠، ١٣، ١٤، ١٥، ١٧، ١٨، ٢٠.

واستخدم التعبير *Sarex* في المقالة الأولى في الرد على الأريوسيين في الفقرات: ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٥٠، ٥١، ٥٣، ٦٠، ٦٢، ٦٤.

واستخدم تعبير "الإنسان هو جسد" *Soma* أو *Sarex* في ضد الأريوسيين ٣: ٣٠.

> **"لأنه كما قال يوحنا "الكلمة صار جسداً"، فمن عادة الكتاب أن يدعو الإنسان بلفظة "جسد"، كما يقول يوئيل: النبي "أسكب روحي على كل جسد" (يوئيل ٣: ٤). وكما قال دانيال إلى استياجيس: لست أعبد الأصنام المصنوعة بالأيدي، بل الإله الحي الذي خلق السماء والأرض وله سلطان على كل جسد (تتمة سفر دانيال:**

٥)، فكل من دانيال ويوئيل يدعوان جنس البشر جسداً".

الخلفية التاريخية لجسد ما قبل السقوط

ما قبل السقوط، أي ناسوت أو إنسانية الله الكلمة هو بحث خاص بطبيعة الجسد الذي قُدِّم ذبيحةً لأجلنا أو عنا (لا فرق بالمرة بين التعبيرين).

كان تطور نظرية الفداء في الغرب يسير تحت تأثير تعليم أنسلم *Anselm* بتقديم الترضية لله الآب، ذبيحة خالية من الشر أو الخطية، وبالتالي كان من الضروري لكل من تزعَّم هذا الاتجاه أن يسأل:

وماذا عن طبيعة إنسانية المسيح؟

ولكن هؤلاء لم يميِّزوا بين:

* قداسة إنسانية المسيح، فهو بلا خطية.

* قداسة تعود إلى أنه أخذ طبيعة آدم.

فقداسة المسيح الإنسانية لأنه بلا خطية هو تعليم عام مقبول في الشرق والغرب، وهو لا علاقة له بالمرة بموضوع الذبيحة؛ لأن الذبيحة حسب فكر أو نظرية أنسلم لم تكن معروفة في زمن الآباء بالمرة، ولا وجود لها إلاَّ مع بداية العصر الوسيط الأوربي. فالمسيح ربنا بلا خطية ليس لأنه أخذ طبيعة ما قبل السقوط، بل لأنه أخذ الطبيعة الإنسانية الساقطة لكي يحولها في أقنومه إلى حرة مقدسة، ليس فقط بالاتحاد بلاهوته، بل بنمو هذه الطبيعة في وسط التجارب والصراعات والموت والخوف، ولذلك يقول أثناسيوس:

> **"لأن القديسة مريم التي أخذ منها جسده كانت قابلة للموت، ولذلك من المناسب أنه حينما كان في الجسد أن يعاني وأن يبكي وأن يتعب ... عندما يقال بكى واضطرب ... كانت هذه من خصائص الجسد، وأيضاً طلب أن تعبر عنه هذه الكأس ... هذا الانفعال أيضاً كان خاصاً بناسوته"** (ضد الأريوسيين ٣: ٥٥).

لكن شرح الإيمان لا يقف عند هذه النقطة الهامة؛ لأن المعلم العظيم يقول:

> **"حيث أن الرب صار إنساناً، فهذه الأمور تمَّت، وتقال عنه كإنسان لكي يبطل أوجاع الجسد ويحرر الجسد منها"** (ضد الأريوسيين ٣: ٥٦).

وبعد ذلك يقول:

> **"فيما صار إنساناً فقد أخذ جسداً يخاف، ولأجل تحرير الجسد وحَّد إرادته الذاتية (كأقنوم) بالضعف البشري؛ لكي يبيد هذا الضعف ويعطي لكل إنسان الشجاعة في مواجهة الموت"** (ضد الأريوسيين ٣: ٥٧).

لقد جاء المخلص لكي يبيد ذلك الخوف مع كل أوجاع الجسد:

> **"لأنه أباد الموت بالموت. وفي جسد بشريته أبطل كل أوجاع الإنسان لأنه بالجسد نزع خوفنا"** (ضد الأريوسيين ٣: ٥٧).

سوف نتعرض فيما بعد للسؤال: "لمن قدم الابن جسده؟" في محاضرة خاصة، لكن الذي يهمنا هنا الآن هو ثلاث نقاط رئيسية:

أولاً: إن قداسة المسيح هي تحول الناسوت في كيان الابن الكلمة. وتحول الإنسانية التي أخذها من والدة الإله، ليس تحولاً ميكانيكياً تم بمجرد اتحاد أقنوم الابن الكلمة بالبشرية التي اتحد بها، ولكن كان الجسد ينمو ويتقدم لأن الناسوت أو الإنسانية كانت محتاجة إلى أن تتقدم (ضد الأريوسيين ٣: ٥٣).

وعندما يتكلم القديس أثناسيوس عن نمو الجسد في القامة، يقول: "كان يزداد فيه ظهور اللاهوت أيضاً، ويظهر للكل أن الجسد هو جسد الله" (ضد الأريوسيين ٣: ٥٣).

ثانياً: إن المسيح له المجد اجتاز الموت بإرادته ومات بإرادة حرة قبلت الموت

بسبب محبته للبشر، وهي نقطة سوف نفرد لها محاضرة خاصة.

ثالثاً: الذبيحة أبطلت الموت؛ لأنها ذبيحة من هو الحياة، فقد أعطى الكلمة حتى مع وجوده في جسد بشري الحياة لجسده البشري" (راجع ١٧: ٢)، ولذلك قدس الجسد (١٧: ٥).

إن العنصر القوي في تدبير الخلاص لم يكن قداسة الجسد، رغم وجوده وتأكيده؛ لأن الصدام هو صدام الحياة مع الموت وليس صدام قداسة الرب مع الخطية؛ لأن الخطية التي تملك بالموت مثل ملك جلس على عرش يملك على الحياة، كانت في حصن الموت وعرشه، ولكن عندما جاء الرب وهدم الموت، هدم الخطية، وكلمات القديس بولس في رومية ٥: ٢١ لا تحتاج إلى شرح:

"حتى كما ملكت الخطية في الموت".

ινα (كما) ωσπερ <u>εβασιλεσιν</u> (ملكت) η αμαρτια (الخطية) εν τω (في) θανατω (الموت)

والكلمة التي وضعنا تحتها خط هي مُلكٌ حطَّمه الرب بموته:

"**بالموت أباد الموت وانتصر على الموت بالصليب**" (تجسد الكلمة ١٩: ٣).

"**ولم يكن ممكناً أن يجعل الإنسان المائت غير مائت إلاَّ ربنا يسوع المسيح الذي هو الحياة ذاتها**" (تجسد الكلمة ٢٠: ١، وراجع أيضاً ٨: ٤).

"**وهكذا بقى الجسد في عدم فساد بسبب اتحاده بالكلمة**" (٩: ١).

"**وأبطل الموت ... ووضع بذبيحة جسده الخاص به أو الذاتي نهايةً لشريعة الموت**" (١٠: ٥).

هكذا يجب علينا أن نغلق ملف العصر الوسيط، ونعود إلى هبة الحياة التي عندما أبادت عرش الموت، سقط أيضاً معه عرش الخطية.